

الأسس الدعوية والحضارية للمدينة النبوية

بقلم: د. مروان شيخ الأرض

1428هـ - 2007م

الطبعة الأولى 1428 هـ - 2007 م

ما ورد في هذا الكتاب يُعبّر عن رأي صاحبه
ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات
رقم (أ ع ش / 1497 تاريخ 2006/12/19م

سلسلة مُحَكَّمَة تصدرعن
جـائـزة دبـــي الــدوليـة للقـرآن الكـريم
DUBAI INTERNATIONAL HOLY QURAN AWARD
ص.ب: 42042 دبي - ا.ع.م.
هاتف: 2610666 9714+ ، فاكس: 2610088 9714+
موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae
البريد الإلكتروني: quran@eim.ae

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾

(الأنبياء 107)

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلقد جاء سيدنا محمد ﷺ بالهداية والنور، وحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة، وكان رحمة للعالمين، وهداية للباحثين عن النجاة في مسالك الظلمة، فكانت شخصيته ﷺ صورة حية للدين الذي جاء به من رب العالمين، ممتثلاً أمر الله سبحانه وتعالى الذي وصفه بقوله في سورة القلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

لم تكن شخصيته ﷺ شخصية عابرة في التاريخ، بل كان أنموذجاً للكمال البشري، ولذلك تعددت الدراسات والبحوث عن حياته ﷺ منذ مولده وحتى وفاته، ولعل علم الحديث الشريف والسيرة النبوية خير دليل على نشوء علم خاص بهذا النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، ومازالت شخصيته ﷺ تحظى بالاهتمام والدراسات المستفيضة عنه، لا من المسلمين وحدهم، بل ومن غير المسلمين أيضاً ممن أنصف الحقيقة العلمية، وذهب يبحث عنها فاهتدى ببحثه إلى أن (**محمداً أعظم عظماء البشرية**) أما أولئك الذين كان حظهم من الإنصاف قليلاً فلا يعتد العلم بهم، ولا يحفل التاريخ بشأنهم، فقد خانوا أنفسهم بمجانبة الحقيقة، وخانوا العلم بتسخيره لأهواء وأحقاد لا يقيم العقلاء لها وزناً، ولذلك ستبقى شخصية المصطفى ﷺ الكاملة ميداناً واسعاً للدراسات والبحوث.

ولقد أخذت جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم مبادرة بدعوة الباحثين لتقديم

دراسات متخصصة عن شخصية الرسول ﷺ وذلك بمناسبة الذكرى العاشرة لإنشائها، والجائزة إذ تقدم هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ إنما تقوم بأداء واجب نحو سيدنا محمد ﷺ إحياء لسنته، ونشراً لسيرته، والتزاماً بتوجيهات مؤسس الجائزة وراعيها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي الذي أراد لهذه الجائزة أن تكون في خدمة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ

فنسأل الله سبحانه أن يجزيه ويجزي كل من أسهم في تقديم هذا العمل العلمي خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

كلمة شكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

يسعدني سعادة بالغة أن جعلني الله سبحانه وتعالى أحد المساهمين في أنشطة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في عامها العاشر، إن جميع المؤمنين يرمقون بفخر واعتزاز أولئك الذين لم تمنعهم مشاغل الحياة عن العمل في إعلاء كلمة الله سبحانه والدعوة إليه بإحسان .

إن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، واحدة من الأنشطة المعاصرة في ميدان الإعلام الهادف، الواعي الدؤوب للدفاع عن حرمات هذا الدين، وشدّ أزر الشباب الناشئ في العالم الإسلامي خصوصاً والعالم بأسره عموماً، ليكون هذا القرآن زادهم العظيم .

أتوجه بالشكر الجزيل لجميع العاملين والمساهمين في جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، راجياً من المولى عز وجل أن يسدد خطاهم ويحفظهم ويمدهم بعونه وتوفيقه إنه نعم المولى ونعم المجيب، والحمد لله رب العالمين .

مروان شيخ الأرض

دمشق: 25 رمضان 1427هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ نظرة متفحّصة لمعركة الصراع بين الإيمان والكفر تبين لنا مكامن القوة وثغرات الضعف في بنيان الأمة العربية والإسلامية في مواجهة التحديات المتلاحقة التي تتعرض لها في زمن العولمة.

لذلك أجد من الضروري أن تنفر فئة من المؤمنين في ميدان العمل الإسلامي الإنساني بشتى مجالاته واختصاصاته، يحيون أصوله الإيمانية وحقائقه الدعوية والحضارية، منطلقين من كتاب الله الحكيم وسنة نبيه العظيم، حيث وصف الله سبحانه الإسلام يوم عرفة فقال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة/3].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾. [الأحزاب/21].

إن تغييب كمال الدين وتمامه والغفلة عن عظمته الأخلاقية والإنسانية وجهل الكثير من المسلمين بمحتوياته وقدراته ومرتكزاته الصانعة للحياة العزيزة الكريمة، جعلت هذه الأمة عرضة للتفرقة والضعف، وتجرؤ الغير على النيل من دينها وعقيدتها ورسولها العظيم، مع ما لديها من طاقات فائقة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل المتواضع بادرة إيجابية أمام الباحثين لإثبات الحقيقة وإحياء العمل بها وإنقاذ المجتمعات الإنسانية جميعاً من الأخطار المدمّرة التي تتعرض لها على صعيد الفرد والمجتمع والأمة. والله ولي الأمر من قبل ومن بعد. والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

مقدمة الكتاب

يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول الموافق (27 أيلول عام 622م)، بدأ عِزُّ الدَّهْر، وارتفع علَمُ الإسلام، وأشرقت شمس الحرية وكرامة الإنسان، ففي هذا اليوم، وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، من طريق العالية، مبتدئاً بقُباء. وبدأت بذلك مهمة تطبيق الإسلام على أرض الواقع بكل أبعاده وعلى جميع المستويات، بدأ جيلُ السعادةِ عملهُ الخالد في صناعة الحياة الإنسانية.

إنَّ رجال الفكر والسياسة، والفلسفة والاقتصاد، والحرب، طالما بذلوا جهودهم، لصياغة حياة سعيدة، لشعوبهم وربما للبشرية فما استطاعوا، ولم يتمكنوا من تحويل تطلعاتهم الفكرية السامية، التي أبدعوها في مؤلفاتهم إلى حقائق ووقائع يتعاطاها الناس في حياتهم ومعاملاتهم، وذلك لكثرة المصاعب والموانع، منها: اقتصار نظرياتهم على أمة دون الأمم، أو عرق دون باقي الأعراق، أو طبقة دون غيرها من الطبقات، أو لجيل واحد من الأجيال، أو لانحصارها في الاقتصاد أو السياسة، أو المجتمع أو السيطرة العسكرية، وربما كانت للرجال دون النساء، أو للأقوياء دون الضعفاء، وأخطر من هذا كله أنهم ينظرون في الواقع الراهن دون النظر إلى المستقبل ببُعدَيْهِ الدنيوي والأخروي؛ وكم من تجارب قام بها رجالها، فما لبثت أن أخفقت، وذهبت أدراج الكتب والذكريات.

وهذه مدينة الإسلام، وهذا العمل النبوي يستمر عشر سنوات من يوم الهجرة إلى يوم الوفاة، مسرح عمل دؤوب يتطوَّرُ ويتنامى، يتكامل ويتواصل، كما البناء الشامخ يزداد علواً وكمالاً وجمالاً وشموخاً لجميع الأبعاد الزمانية والمكانية والنفسية والمادية والروحية، للفرد وللمجتمع، للبيت وللحي وللعشيرة وللقبيلة وللأمة وللإنسانية، للكبار والصغار، للرجال وللنساء، للأطفال وللمسنين، للعرب

والعجم، للمقيم وللمسافر، للبائع وللمشتري، للفقير وللغني، للعامل ولرب العمل، للقائد وللمقود، للصديق وللعدو، للإنسان ولبيئته. من ماء ونبات وحيوان وهواء وجماد. بل تتعدى ذلك إلى ربط الأرض بالسماء، والحياة الأولى بالحياة الآخرة، ومكنونات النوايا والصدور، ومعالم العمل والكلمة والصراع، لكل ما في حركة الإنسان، يجمعها كلها في مهمة الإسلام وغاية رسالته: تقوى الله والعمل الصالح.

إنَّ المثل النبوي الذي تجسَّدَ على أرض المدينة كان تحقيقاً لإرادة الله وشريعته، يبعثُ في البشرية على مدى الزمن الأملَ بالعدالة والكرامة والسعادة والإخاء الإنساني، ويضع كلَّ إنسان أمام مسؤوليته، ويدعوه إلى الهدى والنور، والعودة إلى الحق كلما ابتعدَ عنه، وإلى العمل الصالح كُلَّما افتقده. وحُجَّةُ الله على الناس، هو هذا المثلُ الذي تحقق بأيدي رسول الله وصحابته وهم بَشَرٌ مثلنا فأولئك اتَّبعُوا رسولَ الله فكانَ لهم المثل الأعلى، فانتقلوا به من ذُلِّ الفُرقةِ والتمزُّق إلى عِزِّ الوحدة والقوةِ، ومن ضلال الجاهلية إلى نور الحق والعلم، ومن أمراض الأنانية والفردية والتسلط، إلى صحة التضحية والجماعية والتعاون، ومن عبودية الإنسان للإنسان وما تحمله من ظلم وجهل وتخلف، إلى عبودية الإنسان لله، وما تصنعه من عدالة وعلم وتقدم، قال تعالى مخاطباً الإنسانية جمعاء:

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾. [الأحزاب/21].

وليسمح لي القارئ الكريم بهذه الأرقام:

1- كان عدد المهاجرين إلى المدينة لا يتجاوز /45/ رجلاً ومعهم أكثر من مئة من النساء والأطفال، وكان عدد الذين استقبلوا رسول الله ﷺ يوم قدومه خمسمئة.

2- كان عدد جيش بدر ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً والمشركون حوالي ألف رجل.

3- وكان عدد جيش أُحُد سبعمئة رجل، والمشركون كان عددهم ثلاثة آلاف.

4- وكان عدد جيش الخندق أقل من ثلاثة آلاف وجيوش المشركين عشرة آلاف.

5- وكان فتح مكة على يد عشرة آلاف رجل.

6- وكان عدد جيش المسلمين إلى تبوك ثلاثين ألف رجل.

7- وحجاج بيت الله في حجة الوداع أكثر من مئة ألف.

هذه الأرقام تفيدُ في معرفة حركة التطور والنمو البشري وكانت تترافق مع حركة التطور والنمو الجغرافي والعسكري والاقتصادي والتشريعي والتربوي، بل ولقد ترافقت مع حركة الدعوة الإنسانية العالمية بعد صلح الحديبية ودعوة الملوك والأمم إلى الإسلام، ولم يمضِ على غزوة فتح مكة شهور قليلة حتى تحولت بلاد شبه الجزيرة العربية إلى دولة واحدة تحت راية الإسلام لتحمل من هذا الدين إلى شعوب العالم ـ ما استطاعت إليه سبيلاً ـ الحب والخير والعمل الصالح.

الفصل الأول

الأسس الدعوية والحضارية للحكومة النبويّة

الأسـس الدعوية والحضارية للحكومة النبوّية

مدخل:

قبل البدء في بحث الأسس التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة لابد من استعراض سريع لما سبق وأعدَّه خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة، وسط أجواء المحنة التي عاناها هو وأصحابه من تكذيب وعدوان واضطهاد وهجرة. ويمكننا معرفة هذا الإعداد من خلال السُوَر المكيّة وحوادث السيرة ويفيدنا ذلك ما يلي:

1 – بناء شخصية الإنسان المسلم المؤمن بوحدانية الله وبرسالة رسوله محمد ﷺ والأنبياء جميعاً، ووجوب طاعته واتباعه، هذه الشخصية التي تَذْخَرُ بحب الله وحب رسوله والعمل الصالح.

2 – تزكية النفس الإنسانية وذلك بتوجُّه المسلم بعمله إلى الله تعالى، وبذلُ النفس والمال وكل شيء في مرضاة الله، وإنكار الأنانية والعصبية القبلية، ومحبةُ الناس جميعاً والعملُ لصالح كل إنسان مهما كان موقعه ونسبه ولونه.

3 – التعلم ومعرفة العلوم وقوانين الله في الكون والبحث فيها، وصولاً إلى إقامة المجتمع المتقدم علمياً .

4 – الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة، والكف عما يؤدي إلى النزاع والصراع والعنف والكراهية، ومعرفة النماذج الدعوية المختلفة.

5 - التمتع بالصبر والثبات وتحمل الشدائد والصعاب مقروناً بالثقة بنصر الله، ودون ترقب المنفعَة والكسبِ العاجل الدنيوي فما عند الله خير وأبقى.

6 - الاعتماد على العمل الجماعي المنظم القائم على الحرية والشورى واحترام حقوق الإنسان في التعبير عن رأيه والعمل في خدمة الآخرين.

7 - دراسة نظم الحياة للأمم السابقة تتقدمها مدارس وتجارب الأنبياء صلوات الله عليهم. وما يستفاد منها في التعامل مع الإنسان والحيوان والطير، واستغلال جميع الموارد، وإقامة الحياة الحرة الكريمة، وعوامل بناء الممالك والدول وأسباب تخلفها وانقسامها وزوالها.

أولاً ـ تـأسيس المجتمع الإسلامي

تمهيد:

بدأت مهمة التربية الفردية والجماعية للمجتمع الجديد مع قدوم رسول الله ﷺ المدينة، حيث بدأت عملية إقامة مجتمع مختلف عن نظام القبائل العربية، ومختلف عن نظام الممالك والدول الذي عاشته اليمن والشام ومصر والعراق، ومختلف عن نظم الإمبراطوريات، وكذلك هو مختلف عن نظام الحياة الدينية لأصحاب العقائد السابقة، فهو مجتمع القيم الأخلاقية والمثل العليا، مجتمع الإنسان الذي تسوده الحياة الإنسانية السليمة بأهدافها وقيمها ووسائلها والعلاقات القائمة بين مجموع أفرادها وقبائلها وشعوبها.

مجتمع رسالة السماء الذي بُعث رسول الله ﷺ لإقامته بكل أبعاده الإنسانية، كما قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت معلماً[1]، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

فيه المحافظة على كل الفضائل والمكارم التي عرفتها المجتمعات الإنسانية السابقة، وفيه السعي لإكمالها وإتمامها، وفيه استبعادٌ لفاسد أخلاقها وإبطال للظلم والعدوان والاستغلال والجهل والعبودية لغير الله وإقصاءٌ لرواسب الماضي وانحرافات الناس الخلقية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية.

(1) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، حديث 229، والدارمي حديث 355.

(2) أخرجه البيهقي في سننه 192/10.

تتحول فيه الطاقات المبعثرة للأفراد والأمم إلى بناء متكامل يسمو بها جميعاً ويحقق لها العلم والتقدم والوحدة الإنسانية وتوجهها رسالة السماء وفق المثل الإنساني الأعلى الذي يقوم ببنائه رسول الله ﷺ الإنسان وهو الإنسان الذي قال فيه رب العزة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[الأحزاب/ 21].

أ. البناء الفردي

تقوم الأمة على القاعدة الاجتماعية، وتتكون القاعدة الاجتماعية من مجموع الأفراد والأسر والعائلات والعشائر، ثم مجموع الأحياء والمدن، ثم الشعوب والأمم.

والإسلام دين الله إلى البشرية جميعاً، والمجتمع الإنساني كما الأفراد بحاجة ماسة إلى المثل والنموذج الصالح، لذلك كله نجد معالم المجتمع النبوي في المدينة ترتسم وفق برنامج واضح متطور نام بدأ بنزول رسول الله ﷺ بقباء واكتمل قبل وفاة رسول الله ﷺ:

ا. إصلاح العلاقات بين الأفراد وإزالة آثار ما سلف:

«لما نزل رسول الله ﷺ على بني عمرو بن عوف، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس، وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج، وكان أسعد بن زرارة قد قتل نبتل بن الحارث يوم بُعَاث، فقال رسول الله ﷺ: أين أسعد بن زرارة؟ فقال سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر ورفاعة ابن عبد المنذر: كان أصاب رجلاً منا يوم بعاث.

فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد بن زرارة إلى النبي ﷺ متقنعاً بين المغرب والعشاء، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: يا أبا أمامة، جئتَ من منزلك إلى هاهنا وبينك وبين القوم ما بينك؟ قال أبو أمامة: لا والذي بعثك بالحق ما كنتُ

لأسمع بك في مكان إلا جئتُ. ثم بات عند رسول الله ﷺ حتى أصبح، ثم غدا فقال رسول الله ﷺ لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابني عبد المنذر: أجيروه، قالوا: أنت يا رسول الله فأجره فجوارنا في جوارك. فقال: يجيره بعضكم، وقال سعد بن خيثمة: هو في جواري، ثم ذهب سعد إلى أسعد بن زرارة في بيته، فجاء به مُخَاصرةً يده في يده، ظهراً حتى انتهى به إلى بني عمرو بن عوف، ثم قالت الأوس: كلنا له جار، فكان أسعد بن زرارة يغدو ويروح إلى رسول الله ﷺ»[3]

ذ. المساواة بين الناس وعدم التمييز بينهم أفراداً وجماعات:

ويوم خرج رسول الله ﷺ من قباء باتجاه المدينة وقف الأنصار داراً بعد دار، عشيرةً بعد عشيرة، يدعون رسول الله ﷺ أن ينزل بهم، ويأخذون بخطام ناقته، فكان يقول لهم: «دعوها فإنها مأمورة»، حتى بركت عند المربد[4]، وفي ذلك احترام للجميع وإصرارٌ على عدم التمييز بينهم، وإذا كان نزوله في دار أبي أيوب الأنصاري فليس في ذلك أي إحراج أو تمييز لأن له به قرابة، ولأن داره أقرب دار لمبرك الناقة.

---

(3) وفاء الوفا للسمهودي حـ1ص/249.

(4) أخرجه سعيد بن منصور في السنن 2000/2، والطبراني في الأوسط 35/4.

ذ. نزول المهاجرين في دور الأنصار:

وراعى في ذلك الظروف الاجتماعية لكل أسرة، فالمهاجرون الشباب الذين لم يتزوجوا نزلوا على سعد بن خيثمة وكان عزباً وسمي دارُه باسم دار الأعزاب[5] ونزل المهاجرون مع زوجاتهم وأولادهم على الأنصار أصحاب الأهل والسعة في المسكن والرزق.

ر. أخلاق الحياة اليومية والصحبة:

(أضواء على نزول رسول الله ﷺ على أبي أيوب الأنصاري). عن زيد بن ثابت: (لما نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب لم يدخل منزل رسول الله ﷺ هَدِيَّةٌ، فكانت أول هديةٍ دخلتُ بها عليه. قصعة مثرودة خبز بُرٍ وسمناً ولبناً، فأضعها بين يديه، فقلتُ: يارسول الله، أرسلت بهذه القصعة أمي. فقال: بارك الله فيها، ودعا أصحابه فأكلوا، فلم أرِمِ (أي أغلق) الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة على رأس غلام، مُغطاة، فأقفُ على باب أبي أيوب، فأكشفُ غطاءها لأنظر، فرأيت ثريداً عليه عراق، فدخل بها على رسول الله ﷺ، قال زيد: فقد كنا في بني مالك بن النجار، ما من ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام، ويتناوبون بينهم، حتى تحول رسول الله ﷺ من بيت أبي أيوب، وكان مقامُهُ فيها سبعة أشهر، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة)[6].

(5) السيرة النبوية لابن هشام جـ 145/2.

(6) وفاء الوفا للمسهودي جـ 1ص/265.

ومن آدابه ﷺ في الطعام:

- (قيل لأم أيوب: أيُّ الطعام كانَ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ فإنكم عرفتم ذلك لمقامه فيكم؟. قالت: ما رأيتُهُ أمر بطعامٍ فصُنعَ له بعَيْنِهِ، ولا رأيناهُ أُتي بطعامٍ فعابَهُ)[7].
- (وعن جابر بن سَمُرَة: أنَّ رسول الله ﷺ، كان إذا أكل طعاماً، بعث فضلَهُ إلى أبي أيوب، فأُتِيَ يوماً بقصعةٍ فيها «ثوم» فبعث بها، فقال: يارسول الله ﷺ أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكني أكرهُ ريحَهُ، قال: وإني أكرهُ ما تكره)[8].
- (وعن أبي أيوب قال: وكُنَّا نصنع له العشاءَ، ثم نبعثُ به إليه، فإذا ردَّ علينا فَضْلَه، وتيممتُ أنا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة. حتى بعثنا إليه ليلةً بعشائه، وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً، فردَّهُ رسول الله ﷺ، ولم أرَ ليده فيه أثراً، فجئته فزِعاً فقلتُ: يارسول الله بأبي أنتَ وأمي رَدَدْتَ عشاءك، ولم أر فيه موضع يدك، وكنتُ إذا رددتَهُ تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة.

قال: إني وَجَدْتُ فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه، قال أبو أيوب، فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد)[9].

- (وعن أبي أيوب قال: لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُفْلِ، وأنا وأم أيوب في العُلْوِ، فقلتُ له: يانبي الله بأبي أنتَ وأمي، إني لأكرَهُ وأُعظِمُ أن

---

(7) وفاء الوفا للسمهودي ج1 ص/266.
(8) أخرجه مسلم حديث رقم 2053 (170).
(9) أخرجه الطبراني في الكبير 119/4 حديث 3855.

أكونَ فوقَك وتكون تحتي، فأظهر أنت وَكُنْ في العُلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال: يا أبا أيوب، إنَّ أرْفقَ بنا وبِمَنْ يغشانا أن نكونَ في سفل البيت، قال: فكان رسول الله في سفله وكنا فوقه في السكن، فلقد انكسر حِبٌ[10] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفةٍ لنا، مالنا لحافٌ غيرها، ننشِّفُ بها الماء تخوفاً أن يَقْطُرَ عليه منه شيء فيؤذيه)[11].

- **وعن شرابه ﷺ:**

(كان أبو أيوب حين نزل عنده النبي ﷺ ، يستعذب له من الماء، من بئر مالك بن النضر والد أنس، ثم كان أنس وهند وحارثة أبناء أسماء يحملون الماء إلى بيوت نسائه من بيوت السقيا)[12]. وفي ذلك دلالة على سنة استعذاب الماء.

(وعن أنس بن مالك أنه رأى رسول الله ﷺ، شرب جرعة ثم قطعَ ثم سَمَّى، ثم جرع ثم قطع ثم سمَّى، ثم جرع ثم قطع «ثلاثاً» حتى فرغ، فلما فرغ حَمَدَ الله)[13].

- وعن أبي أيوب الأنصاري قال: (كان رسول الله ﷺ، إذا أكل وشرب قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وسوَّغَهُ وجعل له مخرجاً). (وكان ﷺ لايأكل منفرداً، وكان يحضرُ عشاءهُ خمسةً إلى ستة عشر رجلاً)[14].

---

(10) الحِبُّ: الجرَّة من الفخار لشرب الماء.

(11) أخرجه الطبراني في الكبير 113/4 حديث 3855.

(12) ذكره ابن حجر في فتح الباري 74/10.

(13) أخرجه ابن عدي في الكامل 387/3.

(14) أخرجه أبو داود، حديث 3851، والنسائي في الكبرى 79/6.

٨. جمع الشمل:

أرسل رسول الله ﷺ وهو في بيت أبي أيوب: زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما خمسمئة درهم وبعيرين ليأتيا بأهله، وقد أخذها من أبي بكر، ليشتريا بها ما يحتاجان إليه، فاشترى بها زيد ثلاثة أبعرة، وأرسل أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط، دليلاً.

. فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتي رسول ﷺ وزوجته سودة بنت زمعة، وحاضنته أم أيمن زوج زيد بن حارثة وابنهما أسامة، وقدما بعيال أبي بكر، عبد الله بن أبي بكر وأم رومان زوجته، وعائشة بنت أبي بكر الصديق وأختها أسماء، زوجة الزبير، وهي حامل. فولدت عبد الله بن الزبير في قباء . لشدة متاعب الهجرة . ثم قدمت إلى النبي ﷺ، فوضعته في حجره[15]، فكان عبد الله بن الزبير أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة.

ونزل عيال أبي بكر في بيت حارثة بن النعمان[16]، وكانت ولادة عبد الله بن الزبير في شوال، بعد أشهر من الهجرة[17].

---

(15) السيرة الحلبية ج2ص85.

(16) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1ص/237.

(17) السيرة النبوية لابن حبان ص/149.

ب ـ البناء الجماعي

المؤاخاة:

تقوم رابطة الأخوة بين الناس على أساس رابطة الدم والنسب، حيث يكون أبناء الأب والأم، أو أبناء الأب، أو أبناء الأُم إخوة، وهذه الرابطة تتحمل جميع المعاني الإنسانية في المجتمع من وراثة وتكافل وتعاضد ومسؤولية، ولقد جاء الإسلام بمفهوم للأخوة يتجاوز ذلك كله ويرقى به، دون أن يبطله أو يلغيه، مادياً ومعنوياً، فالأخُوَّةُ في الإسلام أوسعُ امتداداً وأعمق أثراً، إنسانياً وعقائدياً، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات/13].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الحجرات/10].

ورسول الله ﷺ يبدأ في المدينة صناعة البنية الاجتماعية الإنسانية بين المهاجرين والأنصار بإقامة المؤاخاة فيما بينهم، لتكون المثل الأعلى في العلاقات الاجتماعية الإنسانية، حيث تكون رابطة الدين وتقوى الله أعظم مكانة وأعمق أثراً وأبلغ تأثيراً بين الناس من رابطة الدم والنسب التي تقتضي الوراثة. وإذا كانت صراعات الحياة قادرةً على إفساد رابطة الدم بين الأخوة فإنها عاجزة عن إفساد رابطة الدين والعقيدة بين المؤمنين ما داموا متمسكين بها، ومن هذا المنطلق نرى رسول الله ﷺ يقيم بين المهاجرين والأنصار عقد المؤاخاة.

• المؤاخاة في العهد المكي:

آخى رسول الله ﷺ في العهد المكي بين المسلمين الأوائل، آخى بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وآخى بين عبد الله بن مسعود والزبير بن العوام، وآخى بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وبين سعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر[18]. وكان المسلمون الأوائل في مكة يعيشون الأخوة الكاملة بكل أبعادها ومعانيها من خلال دار الأرقم والهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، ومواجهة إيذاء قريش وعدوانها، يشير إلى ذلك افتداء أبي بكر الصديق بماله الصحابةَ المعذبينَ في مكة، أمثال بلال بن رباح الحبشي، وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها، وتعاون الصحابة مع بعضهم بعضاً في الدفاع عن أنفسهم، وإنقاذ المسجونين من عذاب عشائرهم، وفي مشاهد هجرتهم إلى المدينة.

• المؤاخاة في المدينة بين المهاجرين والأنصار:

آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة يتوارثون بعد الموت، دونَ ذوي الأرحام إلى حين غزوة بدر . رمضان السنة الثانية للهجرة . فلما أنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب/6] ردَّ التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة[19].

---

(18) انظر وفاء الوفا للسمهودي ج1ص268 والسيرة النبوية لابن حبان.

(19) زاد المعاد لابن قيّم الجوزية ج3 ص63.

• **زمن المؤاخاة:**

كانت المؤاخاة في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة بعد الهجرة بخمسة أشهر[20].

• **أهداف المؤاخاة:**

ورد في السيرة الحلبية ما نصه:

«والغرض من المؤاخاة: ذهاب وحشة الغربة، ومفارقة الأهل والعشيرة وشَدِّ أزر بعضهم ببعض، فلما أعزَّ الله الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة بطُلَ التوارث، ورجع كل إنسان إلى نسبهِ وذوي رحمه»[21].

وللمؤاخاة أهداف أبعد وأشمل من مجرد التوارث وذلك للأسباب التالية:

1- حاجة الأنصار إلى التفقهِ في الدين، والدين يؤخذ بالقدوة الصالحة، وقد مضى العهد المكي وما فيه من قرآن منزلٍ وجهاد دعوي وصبر على الأذى وهجرة وصحبة وتربيَةٍ نبوية، لا يحمله يوم الهجرة إلا هؤلاء المهاجرون إلى إخوانهم الأنصار، وليس من الممكن أن يعاود رسول الله ﷺ لينقل إليهم أفراداً وجماعات تلك العلوم التي عاشوها، وقد انتقل إلى ميدان العمل والتطبيق، لذلك كان من الضروري أن يتم توزع المهاجرين على عشائر الأنصار، يعيشون معهم حياتهم بكل تفاصيلها ليتمكنوا من صناعة القدوة الحسنة والوحدة التربوية النبوية بين الجميع، ولا يمكن تحقيق ذلك بغير العيش المشترك الذي يتجاوز المصاعب التي تفرضها مشكلات السكن والعمل والصحبة، فبالمؤاخاة:

(20) السيرة النبوية لابن حبان ص/146 والسيرة الحلبية ج2ص/99.
(21) السيرة الحلبية ج99/2.

أصبح المهاجر أخاً لا تبعده عن أخيه الأنصاري موروثات العادات والتقاليد الاجتماعية والوراثية وغيرها.

2- والإسلام بحد ذاته لايقوم على الأسس والقواعد العصبية والقبلية والعشائرية والعرقية، لذلك كان لابد من وضع أسس المجتمع الجديد، بعيداً عن المؤثرات والموروثات الجاهلية، وليكون هذا المجتمع الجديد مثلاً صالحاً يحتذيه المسلمون على مر العصور، يواجهون به جميع التحديات.

3- تحقيق التكامل والتكافل والتعاون الاجتماعي في جميع الأحوال والمجالات فالفرائض الإسلامية من صلاة وزكاة وصوم وحج، تقوم جميعها على تحقيق ذلك، والذي يشكل بمجموعه غاية المؤاخاة، فحريٌّ بالمسلمين إذن أن يكون كلٌ واحد منهم عوناً وسنداً للآخر، فَمَنْ للمهاجرين غير الأنصار يسكنون إليهم ويشاركونهم حياتهم مأكلهم ومشربهم وآلامهم وأفراحهم وجهادهم والذود عن حياضهم؟ وَمنْ للأنصار غير المهاجرين يعلمونهم الدين ويفقهونهم فيه، ويقرئونهم القرآن؟، ثم يشكلون معاً البنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضاً.

- **صور من المؤاخاة:**

صور المؤاخاة التي تُبيِّنُ السموَّ الذي بلغهُ الأنصارُ والسمو الذي بلغه المهاجرون كثيرة جداً، نذكر منها:

1- تميل النفس الإنسانية المهذَّبة المزَكَّاة، إلى المحبة الصادقة والتضحية والإيثار، فكيف وقد عظَّم الإسلام مكانة المتحابين في الله، وعلى هذا الشعور الديني العظيم، تقدم الأنصاري سعد بن الربيع إلى أخيه في الله عبد الرحمن بن عوف المهاجري فقال:

«إنّي أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمها لي أطلقها، فإذا انقضَتْ عِدَّتُها فتزوجها.

قال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلُّوه إلى سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضلٌ من أقِطٍ وسمن ثم تابع الغُدوَّ، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرَةٍ فقال النبي ﷺ: مهيم، قال تزوجت، قال: كم سُقْت إليها؟ قال: نواة من ذهب. أو وزن نواة من ذهب ثم قال: أوْلِمْ ولو بشاةٍ»[22].

2- قالت الأنصار لرسول الله ﷺ: اقسم بيننا وبينهم النخل. قال: لا، قال: تكفوننا المؤونة وتشركوننا في التمر، قالوا: سمعنا وأطعنا[23] وهذا يشبه الشركات المضاربة اليوم، العامل بعمله والمالك بماله.

(22) أخرجه البخاري في البيوع، باب 1، حديث 2048، 2049، ومسلم، حديث 1427.

(23) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب 3، حديث 3782.

3- «كان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال»[24].

4- نزل أبو بكر الصديق في المدينة على خارجة بن زيد بن أبي زهير، وتزوج ابنته حبيبة ولم يزل في بني الحارث بن الخزرج بالسُنْحِ حتى توفي رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين[25].

5- قال المهاجرون لرسول الله ﷺ:

(يا رسول الله ما رأينا مثل قومٍ قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل ولا أحْسَن بذلاً في كثير، كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة ـ أي الخدمة ـ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: لا، ما أَثْنَيتُم عليهم، ودَعَوْتم لَهُم) أي: إنَّ ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع المكافأة[26].

6- ولقد أثنى الله جَلَّ جلاله على المهاجرين والأنصار على هذه الروابط الطيبة فيما بينهم، وبَيَّنَ فضلَ بعضهم على بعض ومكانتهم عند الله، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[الحشر/9].

(24) الروض الأنف ج2 ص241.

(25) الطبقات الكبرى لابن سعد 174/3.

(26) رواه الترمذي في الجامع /2487، وأحمد في المسند ج204/3.

وقال رسول الله ﷺ في الأنصار:

«الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم، أبغضه الله»[27].

ملاحظة مهمة حول المؤاخاة:

إنَّ عقد المؤاخاة اشتمل على خمسة وأربعين رجلاً من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار، وربما يشير ذلك إلى دخول المهاجرين في خمسة وأربعين داراً أو عشيرة من دور وعشائر الأنصار، يشكلون عقد ترابط بينهم جميعاً، ولن تقتصر المؤاخاة على مهاجري قريش وعلى عقد المؤاخاة في دار أنس فقط، وإنما ستستمر بين كل مسلم كانت له أسبقية في العلم والفقه في الدين وأخيه المسلم حديث العهد بالإسلام، وكان رسول اللهﷺ، إذا أسلم رجل قال لأصحابه: «خذوا أخاكم فقد أسلم فعلموه الإسلام» مثل ما حدث للحكم بن كيسان الأسير في سرية نخلة، تلقاه المسلمون بعد إسلامه فعلموه، وكان بعد أقل من سنتين معلماً بعث به رسول الله ﷺ مع المعلمين الدعاة فغدر بهم المشركون في بئر معونة وكان الحكم من شهداء ذلك اليوم.

ومع كل هذا فإن المسلمين في مجتمعهم الإسلامي الجديد سوف يتعرضون لمواقف ومحن، تحرك فيما بينهم النزعات والأنانيات وما شابه ذلك، فكان دعاء رسول الله لهم بقوله: «أبدعوى الجاهلية؟ وأنا بين أظهركم»[28]، ذلك يوم حاول اليهود إثارة ذكريات يوم بُعاث ويوم تصادم جهجاه وسنان على ماء المريسيع

(27) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب 4، حديث 3783، ومسلم في صحيحه حديث 75.

(28) رواه البخاري من حديث جابر /3330.

حيث ثارت المشاعر العصبية الجاهلية.

إن المؤاخاة في الإسلام مدرسة تربوية وعهد دائم يلتزم به المسلم مدى الزمن، تقتضيه حقائق الإسلام وعقيدته، ورسول الله ﷺ يبين أهمية الأخوة في بناء المجتمع الإسلامي الموحد فيقول:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[29] وستكون تشريعات الإسلام جميعاً قائمة على بناء المجتمع الموحد المتماسك الصالح. (في بناء الأسرة وحقوق كل من الزوج والزوجة والأولاد وغير ذلك).

(29) أخرجه مسلم في صحيحه حديث 2586، وأحمد في مسنده 270/4 من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ثانياً ـ تأسيس النظام العام والإدارة ـ عهد المدينة ـ التعايش السلمي والأمن العام

كانت المدينة عشيَّة وصول رسول الله ﷺ تشكل مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والعقيدة، ومن حيث الانتماء القبلي والعشائري، ومن حيث نمط المعيشة، ففيهم: المهاجرون من قريش، والمسلمون من الأوس والخزرج، والوثنيون من الأوس والخزرج، واليهود من الأوس والخزرج، وقبائل اليهود الثلاثة: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، والأعراب الذين يساكنون أهل يثرب والموالي والعبيد والأحلاف وكانت موارد رزقهم متنوعة بين العمل في التجارة، والزراعة والصناعة والرعي والصيد والاحتطاب.

وكان توزعهم السكني قائماً على هيئة قرى أو آطام وحصون، تحيط بها البساتين والأراضي المزروعة، يدخلون حصونهم بعد حلول الظلام ويحرسون منازلهم خوف الغزو والغارة. ويبلغ عدد آطامهم تسعة وخمسين أطماً أو حِصناً، ولكل عشيرةٍ منهم زعامةٌ تقوم على رعاية شؤونها وضمان عيشها وأَمْنها، ولم تندمل بعدُ جراحات الأوس والخزرج التي خلفتها بينهم حربُ بُعاث.

ويمكن وصف الحالة العامة في المدينة بأنها قائمة على تحكم النظام العشائري وأعراف القبائل السائدة، مع شيوع الجهل والأمية لدى معظم سكان يثرب، بينما كان أهل الكتاب أهل علم ودين لكنهم يمارسون الربا واستغلال التجارة ويعملون على إثارة النزاعات بين الأوس والخزرج ليتمكنوا من ضمان سيادتهم ومصالحهم وسلامتهم.

ولاشك في أن النموذج النبوي الذي بدأ تطبيقه في المدينة يتوزع في مسارين متوافقين:

أولهما: يتعلق بالمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله وانقادوا لشرع الله يعملون به ويطبقونه.

ثانيهما: يتعلق بالتآلُفِ والتعايش السلمي بين المسلمين وبين من لم يعتنق الإسلام من الوثنيين من الأوس والخزرج، وأهل الكتاب.

وأعظم مهمةٍ أنفذها رسول الله ﷺ إقامة نظام عام ودستور شامل لجميع ساكني المدينة بين المسلمين ومن سواهم من سكانِ المدينة.

ويتضمن عهد المدينة الوثيقة المكتوبة التالية:

نص عهد المدينة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم[30] يتعاقلون[31] بينهم وهم يَفْدون عانِيَهم[32] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(30) ربعتهم: أي: حالة حسنة، أو أمرهم الذي كانوا عليه. القاموس المحيط، مادة: (ربع).

(31) يتعاقلون: العقل: الدية.

(32) عانيهم: أسيرهم.

وبنو الحارث بن الخزرج يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعِدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجَّار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبَيِّت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المؤمنين لايتركون مفرحاً[33] بينهم أن يعطوه بالمعروف فداء أو عَقْل.

وأن لايُحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[34]

---

(33) مُفرحاً: المفْرَح: بفتح الراء، المحتاج المغلوب الفقير، والذي لا يعرف له نسب ولا ولاء. القاموس المحيط مادة : (فرح).

(34) دسيعة ظلم: الدسيعة، العظيمة.

ظلم، أو إثماً أو عداوناً، أو إفساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

ولايَقْتل مُؤمن مُؤمناً في كافر، ولا يَنْصُرُ كافراً على مؤمن.

وأن ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وأنه من تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصر عليهم.

وأن سَلم المؤمنين واحدة، لا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواءٍ وعدل بينهم.

وأنَّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

وأنَّ المؤمنين يُبيءُ(35) بعضهم عن بعض بما نال من دمائهم في سبيل الله،

وأنَّ المؤمنين المتقين على أحسن هدىً وأقومه.

وأنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولايحولُ دونه على مؤمن،

وأنه من اعتبط(36) قتلاً عن بيّنةٍ فإنه قودٌ به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل وأنَّ المؤمنين عليه كافةً ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وأنه لايحل لمؤمن أقرَّ في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن يَنْصُرَ مُحدثاً أو يُؤويه، وأن من نصره أو آواهُ، فإن عليه لعنةَ الله وغضبه يوم القيامة، ولايؤخذ منه صرف ولا عدل.

(35) يُبيء: من البواء أي المساواة.

(36) اعتبط: قتله بلا جناية منه توجب قتله.

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مرده إلى الله وإلى محمد.

وأن اليهود يُنْفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغُ[37] إلا نفسه وأهل بيته.

وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغُ إلا نفسه وأهل بيته.

وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

وأن بطانة يهود كأنفسهم.

وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

وأنه لاينحجز على ثأر جرحٍ، وأنَّه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبرِّ هذا.

وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

---

(37) يوتغ: يظلم ويوبق.

وأنَّه لايأثم امرؤٌ بحليفهِ، وأنَّ النصر للمظلوم.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن الجار كالنفس غيرُ مُضارٍّ ولا آثِم. وأنه لاتجار حرمةٌ إلا بإذن أهلها.

وأنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخافُ فسادُه؛ فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأنَّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرَّه.

وأنه لاتجُار قريش ولا من نَصَرها.

وأنَّ بينهم النصر على من دَهَم يثرب. وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه على المؤمنين إلا من حاربَ في الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

وأنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وأنَّ البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وأن الله على أصدق مافي هذه الصحيفة وأبره.

وأنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأنَّ الله جارٌ لمن برَّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ[38].

---

(38) أخرجه البيهقي 106/8.

أهمية عهد المدينة:

أطلق علماء المسلمين على هذا العهد أوصافاً وتسميات منها:

- دستور الدولة البلدية بالمدينة: وقد أطلق عليه ذلك "محمد حميد الله في كتابه الوثائق السياسية" ووصفه بأنه أقدم دستور مسجل في العالم.
- أول دستور أعلنه الإسلام: وقد أطلق عليه ذلك أكرم العمري.
- تنظيمات الرسول الإدارية: وقد أطلق عليه ذلك صالح أحمد العلي.

ومن دراسة هذه الوثيقة التاريخية التي نظم رسول الله ﷺ بها علاقات القاطنين في المدينة؛ نتبين حقائق غاية في الأهمية، منها:

1- جعلت الوثيقة جميع القاطنين في يثرب من مهاجرين ويثربيين ومن تبعهم وجاهد معهم أمة واحدة. وفي ذلك بُعدٌ آنيٌّ لمن يقطن يثرب وبُعدٌ مستقبلي لمعنى الأمة تتضمن هؤلاء جميعاً ومن يلحق بهم ويجاهد معهم.

2- اعترف العهد بالحال الخاص لكل فئة من السكان زعامة ووراثة مَسائِلَ ومشاكل لهم بما فيها أعرافهم وتقاليدهم وعقائدهم الدينية. وتتحمل كل فئة ما يترتب عليها من آثار مشاكلها السابقة من فداء الأسرى وغير ذلك.

3- يتعاون المؤمنون في معاونة الذين تعرضوا لوضع مالي شديد من افتقار أو كثرة عيال، ولعل ذلك يشابه صندوق تكافل لجميع الأهالي، وخاصة في الفدية.

4- منع حدوث تجاوزات في روابط الولاء للحفاظ على الثقة والتعاون بين الجميع.

5- الجميع متعاونون في مقاومة أي معتدٍ أو آثم أو ظالم أو مفسد ولو كان ولد أحدهم، وفي ذلك سيادة للدستور والقانون تتحقق من خلاله العدالة

والمساواة ويَتَحقَّقُ الأمن والسلامة للجميع.

6- أعطى العهد امتيازاً للمؤمنين على الكافرين، يلزم عدم قتل مؤمن في كافر، ويلزم عدم نصرة كافر على مؤمن.

7- جميع المتعاهدين سواء، مكانة صغيرهم مثل مكانة كبيرهم في الحقوق والواجبات، وكلهم يدٌ واحدة وذو اعتبار واحد.

8- ولليهود مثل ما لغيرهم في هذا العهد، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

9- والمؤمنون واليهود سواء ينصر بعضهم بعضاً.

10- لا يجوز للمشركين المعاهدين في هذا العهد أن يجيروا مالاً أو نفساً لقريش، ولا يجوز القتل، وإذا وقع عدوان قتل على أحد فإن على الجميع إظهاره وجميعهم متعادلون في ذلك، وجزاء القاتل القتل إلا إذا قبل وليه العقل (أي الدية على العاقلة أي العشيرة).

11- لا يحل لأحد ممن عاهد أن يحدث حدثاً أو يؤوي مُحدثاً وإذا فعل ذلك وقع عليه غضب الله ولعنته وحرمانه من الحقوق العامة.

12- ومرجعية الأمور المختلف فيها لرسول الله ﷺ فهو رأس المدينة.

13- من أخلَّ بعهده من اليهود فإنه ظالم لنفسه وأهله وليس له على أهل هذا العهد ذمة ولا ميثاق.

14- يتحمل كل فريق مشاركٍ في هذا العهد نصيبه في الحرب والسلم والنفقة وعليهم التعاون والمشاركة، وبينهم النصح والبر دون الإثم.

15- لا يتحمل أحد وِزْرَ غيره.

16- الالتزام بعدم إجارة قريش أو حلفائها أو من دهم يثرب، وعليهم جميعاً

النصر على العدو.

17- هذا العهد لا يلغي الالتزامات السابقة له على المتعاهدين ولا يعفي ظالماً أو آثماً من جزائه ومعاقبته.

18- ليس هذا العهد للحرب فقط بل للسلم أيضاً.

19- جعل هذا العهد يثرب بلداً محرماً.

لذلك نجد الحرمة أول عمل تطبيقي لإحلال الأمن والسلام في المدينة.

(... عن رافع بن خديج عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرَّم مكة وإني أحرم مابين لابَتَيْها» يعني المدينة. قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها ما ذعرتها، وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة حمىً)[39].

ومن فروض حرمتها: حرمة النفس والمال والمتاع والأعراض وحرمة الأشجار والنبات والحيوان واللُقَطَة.

قال ﷺ: (إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة ما بين حَرَّتِها وجِمامها[40]، لايختلى خلاها، ولا ينفر صيدها ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها. يعني أنشد . ولايقطع شجرها إلا أن يعلف رجل بعيراً ولا يحمل فيها سلاح لقتال)[41].

---

(39) وفاء الوفاء ص/89 ولابتيها تعني الحرتين اللتين تحتها من جهة الشرق والغرب، أخرجه مسلم، حديث 1361، 1372.

(40) جِمام المدينة هي ثلاثة أجبل في وادي العقيق على يمين الذاهب إلى مكة.

(41) أخرجه الإمام أحمد في المسند 119/1 و393/3.

ثالثاً ـ تأسيس القاعدة الصحية والعمرانية

تعرض المهاجرون بعد قدومهم المدينة إلى إصابتهم بحمى يثرب التي اشتهرت بها، والاختلاف المناخي والبيئي بين مكة والمدينة واضح تماماً، حيث لم تتحمل صحة المهاجرين إليها ذلك الوباء، وكان له آثار جسيمة على المهاجرين حتى إنَّ بعضهم أوشكَ أن يموت، ويمكننا من خلال هذه الظاهرة الخطيرة أن نتعرف إلى ما أصاب المهاجرين ومِنْ ثمَّ ما اتخذهُ رسول الله ﷺ من مواقف وأعمال أدت إلى تحول المدينة من الوباء إلى الصحةِ والسلامة البيئية.

آ ـ صحة المدينة وتطهير البيئة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قدمها وهي أوْبأُ أرضِ الله من الحُمَّى، فأصاب أصحابَهُ منها بلاءٌ وسُقْمٌ. فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ. قالت فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة وبلال ـ مَوْلَيا أبي بكر ـ مع أبي بكر في بيت واحدٍ فأصابَتْهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم ـ وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجابُ ـ وبهم مالا يعلمُه إلا الله من شدَّةِ الوَعْكِ[42]، فدَنْوتُ من أبي بكر، فقلت له: كيف تجدكَ يا أبتِ؟ فقال:

كلٌّ امرئ مصبّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنى من شراكِ نعلهِ

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له: كيف تجدكَ يا عامر؟ فقال:

---

(42) الوَعْكُ: شدة ألم المرض.

لقد وجدتُ الموت قبلَ ذَوْقِهِ إنَّ الجبان حَتْفُهُ مِنْ فَوقِهِ

كل امرئ مجاهد بطَوْقِهِ[43] كالثور يحمي جلْدَهُ برَوقه[44]

قالت: فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول: قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجَع بفناء البيت ثم رفع صوته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ

وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ[45] وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطفيل[46]

قالت عائشة رضي الله عنها: فذكرتُ لرسول الله ﷺ ما سمعتُ منهم، فقلت: إنهم ليَهذُون وما يعقلون من شدة الحمى. قالت: فقال رسول الله ﷺ: اللهم حَبِّب إلينا المدينة كما حَبَّبْتَ إلينا مكة، أو أشدّ وبارك لنا في مُدّها وصاعِها[47]، وانقُل وباءها إلى مَهْيعة[48]: (الجحفة) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص:

(أنَّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمّى المدينة، حتى جهدوا مرضاً، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ، حتى كانوا ما يُصلُّون إلا وَهُمْ

---

(43) بِطوقِهِ: بطاقته.

(44) بِرَوْقِهِ: بِقرْنِهِ.

(45) مجنَّة: سوق للعرب في الجاهلية.

(46) شامةٌ وطفيل: جبلان بمكة.

(47) المد والصاع: يعني الطعام الذي يكال بالمد والصاع والمد: رطلان عند أهل العراق ورطل وثلث عند أهل الحجاز، والصاع: أربعة أمداد عند الحجازيين.

(48) أخرجه البخاري في فضائل أبواب المدينة، باب 12، حديث 1889 وفي مناقب الأنصار، باب 46، حديث 3926، وحديث 5654، وحديث 5677.

قُعود، قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلون كذلك فقال لهم: اعْلَمُوا أنَّ صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم، قال: فتجشم[49] المسلمون القيام على مابهم من الضعف والسُقم، التماسَ الفضل)[50].

– واضحٌ من هاتين الروايتين شدَّةَ ما أصاب المهاجرين من الحمى وموقف النبي ﷺ منها.

– الدُعاء: لم يُعرف في الحياة النبوية أي انفصال بين القول والعمل ولا بين الدعاء والأخذ بالأسباب، فكان دعاؤه مقروناً بالعمل وإعداد الأسباب.

ب . الأعمال النبوية لمكافحة وباء المدينة:

۱. العناية بالوديان ومجاري المياه:

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:

(وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله وكان بُطْحانُ يجري نجلا، تعني ماء آجناً[51]).

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح ماء وادي بُطحان يجري عذباً، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ بُطحان على ترعة من ترع الجنة»[52]. ولاشك أن أعمالاً كثيرة جرت

(49) فتجشم: تكلف.

(50) السيرة النبوية لابن هشام جـ133/3، والبداية والنهاية لابن كثير جـ224/3.

(51) أخرجه البخاري في فضائل أبواب المدينة، باب 12، حديث 1889 وآجناً: الماء الآجن: المتغير لونه وطعمه وبطحان واد بالمدينة.

(52) رواه البخاري في التاريخ الكبير جـ51/2.

لجري الأنهار والوديان ومنع ركود مياهها. مما أدى إلى أن وصفها رسول الله ﷺ بذلك.

ذ. النظافة:

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (تنظّفوا بكل ما استطعتم فإن الله تعالى بني الإسلام على النظافة ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف)[53] وفي حديث الترمذي: (إن الله نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم)[54]. قال تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...﴾ [الأعراف/31] والزينة مصْداق النظافة تعرض للمؤمن خمس مرات في اليوم والليلة مع كل صلاة، يضاف لها السواك.

ر. الطهارة:

حض رسول الله ﷺ على الطهارة بشتى مجالاتها: طهارة النفس وطهارة الجسم وطهارة اللباس والسكن والمصلى والماء والأطعمة والمال والطرق... إلخ.

وقد أمر رسول الله ﷺ في ذلك بما يلي:

. لايجوز التبول في مهب الريح لئلا تعود النجاسة إليه، ولا في ماء راكد، وقليل جار، أو في كثير أيضاً، ولا في المقابر احتراماً لها، ولا في الطرقات ومتحدَّث الناس لقوله ﷺ:

«اتقوا الملاعن الثلاث، البراز في الموارد، وقارعة الطريق والظلام» و«ولا يبول

---

(53) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال وعزاه إلى أبي الصعاليك الطرسوسي في جزئه.

(54) جامع الترمذي /2799 وإسناده ضعيف.

تحت شجرة مثمرة»[55].

. وفي استعمال الماء للشرب أو الوضوء أو الاستحمام: فلا أبلغ من الوضوء الذي وصفه رسول الله ﷺ والذي يسبق الصلاة ولا صلاة بدونه، فقال: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل مِنهُ كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لايبقى من درنهِ شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» [56].

وفي ماء الشرب ومياه الآبار والماء الجاري والماء الطهور وغير ذلك[57]، ما يُشيرُ إلى أهمية الماء والمحافظةِ عليه نظيفاً طاهراً، وهذا بالتالي ما يشكل عُنصرَ السلامة من الأوبئة والأمراض.

. وفي إلقاء الفضلات والتغوّطِ والتبرز: فقد أمر رسول الله ﷺ بالابتعاد عن المساكن في إلقاء الفضلات والتغوط والتبرز وجعل لها أماكن مخصصة تدعى المناصع بعيداً عن المساكن[58].

ل. حفر الآبار لمياه الشرب وإجراء قناة المياه العذبة بالمدينة:

فقد حفر طلحة بن عبيد الله عدداً كبيراً من الآبار وضع عليها النضاحين وأجرى منها قناة للمياه العذبة، ونتج عنها زراعة القمح المروي لأول مرة في المدينة.

(55) أخرجه الترمذي في السنن حديث 2799.

(56) أخرجه أبو داود حديث 26، وابن ماجه حديث 328.

(57) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب 6، حديث 528، ومسلم حديث 667.

(58) المدينة الإسلامية، د. محمد عبد الستار عثمان ص61.

وكان رسول الله ﷺ يستعذب بعض الآبار ويحث عليها، وكان أهل المدينة ينقلون الماء منها إلى منازلهم، وقد طلب من الصحابة شراء بئر رومة ليجعلها لعامة الناس فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه ووهبها لعامة المسلمين.

هذه بعض الشواهد التي تدل على عناية رسول الله ﷺ بصحة البيئةِ التي تعيشها المدينة إلى جانب محافظته عليه الصلاة والسلام على حماية البيئة النباتية والحيوانية من خلال تحريم المدينة.

ولم يمض وقت طويل حتى خرجت الحُمَّى من المدينة إلى غير رجعة، وقد روى البخاري في صحيحه: (رأيت امرأة سوداء ثائرة الشعر خرجت من المدينة حتى نزلت مَهْيعَة، فتأولتها أن وباء المدينة نقلَ إلى مَهْيَعة)[59]. وفي رواية أخرى سماها رسول الله ﷺ أم ملدم.

ومع ذلك لم تقف ظاهرة حُمَّى المدينة عند حدود المدينة وآثارها في المهاجرين، بل حملها أعداء الإسلام، ومشركو قريش، فقالوا: أصاب أصحاب محمد وباء المدينة فأصبحوا ضعاف الجسم هزيلي البدن، لذلك أمر رسول الله ﷺ أصحابه في عمرة القضاء بعد صلح الحديبية بسنة كاملة أن يضطبعوا خلال طوافهم بالبيت، ليظهروا من أنفسهم قوة الأجسام وصحة الأبدان[60].

ج . البيئة الطبيعية في المدينة وضمان سلامتها:

حرم رسول الله ﷺ المدينة وجاء ذلك في شروط عهد المدينة (حرام جوفها)

(59) أخرجه البخاري في التعبير، باب 41، حديث 7038، 7039، 7040.

(60) انظر الاضطباع في أبحاث الحج وبحثنا فيما بعد في عمرة القضاء.

وورد من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم حرَّم مكة فجعلها حراماً، وإني حرَّمت المدينة حراماً ما بين مأزمَيها، أن لايُهَرَاق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يخْبَطَ فيها شجرة إلا لعلف» وفي حديث جابر قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة مابين لابَتَيْها: لاتقطع عضاهها ولا يُصاد صيدها».

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة مابين حرَّتَيْها وحمامها: لايخْتَلَى خلاها، ولا يُنفَّرُ صيدها، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشادَ بها (أنشدها) ولا يقطع شجرها إلا أن يَعلف رجل بعيراً، ولا يحمل فيها سلاح لقتال» [61].

والمجتمع النبوي الذي يضمن سلامة الحيوان والنبات، يجعل بذلك النفس المؤمنة الصادقة منسجمة مع حقائق الإنسان الذي يعمل الإسلام على صحته وسلامته وسلام أمنه ومجتمعه، والنبي ﷺ يقول: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟. قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»[62]. و«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[63].

د . العمران النبوي في المدينة:

قدم رسول الله ﷺ المدينة، وسكانها موزعون عشائرياً في قرى صغيرة أو

(61) رواه أحمد في مسنده 119/1.

(62) أخرجه البخاري في الأدب، باب 29، حديث 6016.

(63) أخرجه البخاري في المظالم، باب 3، حديث 2442، ومسلم حديث 2580.

حصون وآطام، فكان الحصن الواحد للعشيرة تحيط به حيطانها يعملون فيها بالزراعة والصناعة ثم إذا جاء المساء، دخلوا حصنهم وأقفلوا أبوابهم، ليأمن كل منهم جيرانه وما تحمله ظلمه الليل من طوارق السوء، بلغ عدد حصونهم تسعة وخمسين أطماً وحصناً، موزعة على قبائلهم وعشائرهم[64]. من عرب ويهود، ولعل قدوم رسول الله ﷺ وحال استقبال الأنصار له في الطريق بين قباء ودار أبي أيوب الأنصاري أحد الأدلة على التكوين السكني للمدينة.

وبقدوم المهاجرين إلى المدينة، كان أمام النبي ﷺ مهمة توفير السكن والمعاش لهم، وكانت للأنصار في ذلك مساهمات عظيمة خالدة منها:

ا- الأرض:

منح الأنصار الأراضي إلى رسول الله ﷺ يفعل بها ما يشاء وقد ورد في ذلك:

- عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة جعلوا له كل أرض لا يبلغها الماء يفعل بها ما يشاء»[65].

ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان:

(فلما قدم رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً، أقطعَ الناس الدورَ والرباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخرة المسجد، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف به، وجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود الهُذَليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعاً واسعاً، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره، ولأبي بكر رضي الله عنه موضع داره عند المسجد، وأقطع كل واحد

(64) المدينة الإسلامية، د. عبد الستار عثمان ص52.

(65) الأموال لأبي عبيد ص119.

من عثمان بن عفان، وخالد بن الوليد والمقداد وعبيد والطفيل وغيرهم مواضع دورهم، فكان رسول الله ﷺ يقطع أصحابه هذه القطائع، فما كان عفاً[66] من الأرض فإنه أقطعهم إياه، وما كان من الخطط المسكونة العامرة، فإن الأنصار وهبوه له، فكان يقطع من ذلك ما شاء، وكان أول من وهب له خُطَطَهُ ومنازله حارثة بن النعمان، فوهب له ذلك وأقطعه)[67].

ومن يتأمل ما ذكر في دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم مع منازل الأنصار رأى أمراً عظيماً فيما كان من عمارة المدينة وسعتها واتصال بعضها ببعض، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك.

وقد ورد في المغازي للواقدي في مشورة غزوة أحد: أنَّ أصحاب رأي القتال في المدينة اعتمدوا على اكتمال البنيان وتراص المنازل مما يساعد على مشاركة النساء والأولاد في الدفاع عن المدينة وقتال المشركين[68]. وقد تشابك البنيان.

وتستمر المدينة في عمرانها واتساعها مع فريضة الهجرة إليها حتى فتح مكة. لتصبح عاصمة الإسلام الأولى ومركز حضارتهم.

ولم يكن هذا التوسع العمراني عشوائياً وإنَّما كان ضمن مخطط واضح وهادف لجعل المدينة مثلاً تحتذيه المدن الإسلامية من بعد، يقول الدكتور محمد عبد الستار عثمان: (إن مسؤولية توزيع الخطط كانت في يد الرسول ﷺ باعتباره الحاكم، وأن منهجه في توزيع الخطط هدف إلى تجميع كل قبيلة في خطة خاصة

---

(66) عفاً: غير مسكونة.

(67) معجم البلدان لياقوت الحموي ج/5 ص86.

(68) انظر المغازي للواقدي مجلد 1 ص210.

بها. وتركت حرية تقسيم الخطة للقبيلة وفقاً لظروفها وإمكاناتها في الإنشاء والتعمير، ومدى الحاجة إلى ذلك، فكأنما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران كما حدث في إقطاع الزبير)[69].

ذ- خطط المدينة وعلاقتها بالأخلاق والمجتمع الإسلامي:

منذ اللحظة الأولى للهجرة النبوية إلى المدينة، بدأت مهمة التربية الفردية والاجتماعية للمجتمع الجديد، يثبت فيه رسول الله ﷺ مكارم الأخلاق وينفي خبائثها ويُتمِّمُ مكارمها (إنما بعثت معلماً، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[70]. فالرابطة بين أبناء البيت الواحد ضرورة حياتية لابد منها، والرابطة بين أبناء العشيرة الواحدة ثم القبيلة الواحدة ضرورة وجود وبقاء لاغنى عنها، ولكن الأعلى والأهم في ذلك إنما هو صعود هذه الروابط من مواقع الأنانية والفردية والعصبية العشائرية والقبلية وما يتولد عنها من مثالب ومكاره ومفاسد. كحب الذات، وحب الثأر والانتقام، واشتعال الفتن والاقتتال، وبث الفرقة والعداوة والبغضاء، وصعود هذه الروابط نقية طيبة سليمة البنية إلى روابط أعز وأرفع وأرقى وأشمل، روابط حب الجماعة والتعاون مع الغير وإنكار الذات والإيثار والتضحية والفداء.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[71] وفيه صعود النفس إلى حب رسول الله فوق حب الولد والوالد والعشيرة والناس أجمعين.

(69) المدينة الإسلامية ص55.

(70) أخرجه البيهقي في سننه 192/10.

(71) أخرجه مسلم في صحيحه حديث 44، والنسائي في الكبرى 534/6 من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[72].

والحياة العامة في المدينة قبل الهجرة كانت تقوم على وحدات عشائرية وقبلية تثور فيما بينها الفتن والصراعات التافهة وكان من أحدثها عهداً الحرب بين الأوس والخزرج «يوم بعاث».

والخطط النبوية في المدينة تعتمد مبدأ توثيق الأخوة والجوار حتى تصل أعمق الجذور التي تتغلب معها على حب غير الله ورسوله والمؤمنين، ولتصبح رابطة المجتمع هي رابطة الدين. ودراسة هذه الخطط وتوزيعها السكني: «كان انعكاساً للصياغة الإسلامية التي حاولت الموافقة بين الطبيعة القبلية العربية والتأكيد على رابطة صلة الرحم بين القبيلة الواحدة وجمع هذه القبائل في خطط متعددة تجمعها مدينة واحدة ذات كيان مادي متكامل، وإطار اجتماعي أشمل وأعم، وهو إطار التآخي الذي وجه إليه رسول الله ﷺ ليذوِّب النزعات القبلية ويخلق المجتمع الواحد»[73].

والعمران بهذه الخطط يحتاج فيه السكان إلى لون آخر من المفاهيم الأخلاقية والمناهج السلوكية، وكان الرسول ﷺ يؤدي ذلك ويتابعه فيقول:

(لازال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[74]، وقد نظم حقوق الجار على الجار ومنها: «قال رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن

(72) أخرجه البخاري في الإيمان، باب 7، حديث 13، ومسلم حديث 45.

(73) مجلة عالم المعرفة/ المدينة الإسلامية: د. محمد عبد الستار عثمان ص56.

(74) أخرجه البخاري في الأدب، باب 28، حديث 6014، 6015، ومسلم حديث 2624، 2625 من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم.

كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[75].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[76].

ورسول الله ﷺ أمر بالتعاون بين الجيران ونظم بينهم حقوق الارتفاق. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره.. مالي أراكم عنها معرضين؟ والله لأرمين بها على أكتافكم)[77].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار للرجل أن يضع خشبة في حائط جاره، وإذا اختلفتم في الطريق فاجعلوها أذرعاً»[78].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره»[79].

رابعاً ـ تأسيس القاعدة التعليمية والتربوية

قال الله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة/2].

(75) أخرجه البخاري في الأدب، باب 85، حديث 6136، ومسلم حديث 47 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(76) أخرجه مسلم حديث 54 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(77) أخرجه البخاري في المظالم، باب 20، حديث 2463، ومسلم حديث 1609.

(78) أخرجه مالك في الموطأ 745/2، والشافعي في مسنده 224/1.

(79) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم 115، وعبد بن حميد في المنتخب حديث 342، والدارمي 215/2، والحاكم 443/1.

هذه الآية العظيمة تبين بوضوح أمرين أساسيين هما:

وظائف النبوة وحال الأمة التي بُعث النبي الكريم فيها، فالأمة كانت على حال من الجهل والتخلف العلمي والضلال عن الأهداف السامية والدوافع النبيلة. سواء كان ذلك في مكة أو يثرب أو غيرهما من بلاد العرب، بينما كان أهل الكتاب يحملون علماً، وقد تخلوا عن أداء واجبهم في تسخير العلم في خدمة الحق والخير، حتى وصفهم القرآن الكريم بقول الله جل جلاله فيهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة/5].

ورسول الله ﷺ يحمل إلى الأمة : تلاوة القرآن وتزكية النفس وتعليم الكتاب والحكمة. يكلفهم بتأديتها إلى غيرهم حتى لا يكونوا مثل أهل الكتاب الذين لم يعملوا بكتاب الله. وقد بدأ نزول القرآن في غار حراء بمكة بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق/1] ليكون إيذاناً ببدء العلم، وتتابع على هذه الحقيقة وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة/3] يحمل بين دفتيه قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام/ 38] وهكذا نجد العلم والتعليم والتربية ساحة عمل دؤوب لا يتوقف أبداً نُلاحظ ذلك في تتابع العمل في العهدين المكي والمدني:

. في العهد المكي: علمنا كيف كانت مهمة التعليم والتربية في دار الأرقم، وكيف أصبح المسلمون الأوائل رُسُل العلم والتعليم إلى إخوانهم الأنصار، بعد أن كان

معظمهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وضالين لايَضَعُون أعمالهم على هدف واضح وغاية نبيلة.

. وفي العهد المدني: بدأت ترتسم معالم حركة علمية واسعة النطاق لا تستثني أحداً من المسلمين على جميع المستويات.

آ . على المستوى الفرديّ:

(قال أبو الدرداء: قال لي رسول الله ﷺ : كيف أنت يا عُوَيْمر إذا قيل لك يومَ القيامة: علمت أم جهلت؟ فإن قلت عَلمتُ، قيل لك: هل عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ وإن قُلْتَ: جَهلْتُ. قيل لك: فما كان عُذرك فيما جهلت: ألا تَعلَّمت)[80].

وكانت مهمة مصعب بن عُمير: المعلم المقرئ في المدينة، تعليم المسلمين الأوائل من الأنصار القرآن والإسلام.

ثم اتسعت دائرة التعليم بين الأنصار عن طريق المؤاخاة التي توزع فيها المهاجرون على دور الأنصار وعشائرهم، وكانت من بين أعمال رسول الله ﷺ في مجال التعليم، افتداء الأسرى الذين يعلمون القراءة والكتابة والحساب، تعليم كل واحد منهم لعشرة من أبناء المسلمين.

ب . على المستوى الجماعي:

قال رسول الله ﷺ : «ما بال أقوام لايفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولايعظونهم ولا يأمرونهم ولاينهونهم، وما بال أقوام لايتعلمون من جيرانهم

---

(80) أخرجه أبو نعيم في الحلية (214/1).

ولايتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمنَّ قومٌ جيرانهم ويُفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتفطنون أو لأعاجلنهم العقوبة، فجاء الأشعريون وكانوا قوماً فقهاء ولهم جيرانٌ جفاةٌ من أهل المياه والأعراب فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشدة فما بالنا؟ فقال: ليُعلِمَنَّ قومٌ جيرانهم وليفقهُنَّهم وليفطننهم وليأمرنَّهم ولينهونَّهم، وليتعلمنَّ قوم من جيرانهم ويتفطنون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا، فقالوا: يارسول الله أنفطِّنُ غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم وأعادوا قولهم: أَنُفَطِّنُ غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمْهِلْنا سنةً، فأمْهَلَهُمْ سنة ليعلمونهم ويفقهونهم ويفطنونهم ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة/78] (81).

وجاء الأشعريون بعد سنة وقد علَّموا جيرانهم، وهكذا كانت مهمة مَحْوِ الأمية في الأمة ليتحول الجميع إلى متعلمين وعلماء.

ولنتناول بعض الأمثلة والشواهد على حركة التعليم والتربية التي أرسى أسسها رسول الله ﷺ بعد الهجرة:

- كان المسجد النبوي معهد إعداد تربوي وتعليمي لجميع المسلمين في المدينة، ومع اتساع المدينة وكثرة عدد المسلمين وحاجتهم لتعليم أطفالهم، أمر رسول الله ﷺ ببناء تسعة مساجد في الأحياء لتعليم الأطفال ولتوفير مشقة وصولهم إلى المسجد النبوي «هذه المساجد هي: مسجد بني عمرو بن النجار ـ مسجد بني ساعدة ـ مسجد بني سَلِمة ـ مسجد بني رابح ـ مسجد بني عبد الأشهل ـ

(81) أخرجه الطبراني في الكبير كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد جـ1.

مسجد بني رُزَين . مسجد غفار . مسجد أسلم . مسجد جُهينة».

. (أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن سعيد بن العاص أن يُعلمَ الكتابة بالمدينة وكان كاتباً محسناً)[82].

. قال عبادة بن الصامت: (عَلَّمتُ أناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن)[83].

. (وتعلم زيد بن ثابت الكتابة من أسرى بدر مع جماعة من غلمان الأنصار)[84] وكان عمره يومئذ اثنتا عشرة سنة، ثم شهد الخندق وعمره خمس عشرة سنة وكان من كُتاب الوحي ثم رئيس لجنة جمع القرآن أيام خلافة أبي بكر الصديق.

. (كان لجابر بن عبد الله حلقةٌ في المسجد النبوي تأخذ عنه العلم)[85].

. (إن رسول الله ﷺ كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً والرسول ﷺ يعلمهم ليبين للناس ما نزل إليهم)[86].

ج . التدوين والكتابة وهي بداية العلم:

. أمر رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة بإحصاء المسلمين في المدينة رجالاً وأطفالاً ذكراناً وإناثاً فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس» فكتبنا له ألفاً وخمسمئة رجل»[87].

. (عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: استأذنت النبي ﷺ في كتاب ما سمعت منه فأذن لي فكتبته، فكان عبد الله يُسمي صحيفته تلك: الصحيفة

---

(82) الاستيعاب لابن عبد البر ص393.

(83) أخرجه ابن ماجة حديث 2157، وأحمد في مسنده 315/5.

(84) الروض الأنف ج92/2.

(85) التراتيب الإدارية ج220/2.

(86) أخرجه البزار كما ذكر ذلك الهيثمي في مجمع الزوائد 132/1.

(87) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب 181، حديث 3060، ومسلم حديث 149.

الصادقة)[88].

. كان لرسول الله ﷺ كتاباً للوحي بلغ عددهم واحداً وستين كاتباً وفق إحصاء محمد حميد الله في كتابه الوثائق التاريخية للعهد النبوي، وكان منهم زيدبن ثابت الذي ألف كتاباً في علم الفرائض.

. (كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله ﷺ: تعالوا حتى نؤمن ساعة[89] فيجلسون إليه فيذكرهم بالله والتوحيد في الآخرة، وكان يخلف رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجمع الناس ويذكرهم الله ويفقههم فيما قال رسول الله ﷺ، فربما خرج عليهم رسول الله ﷺ وهم مجتمعون عنده فيسكتون فيقعد إليهم ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه ويقول رسول الله ﷺ: بهذا أمرت).

(88) الطبقات لابن سعد ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص.

(89) أخرجه أحمد في مسنده 230/1، وابن المبارك في الزهد ص/490.

د. تعلم اللغات الأجنبية:

. عن زيد بن ثابت قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: «تعلم كتاب اليهود فإني ما آمنُ يهودياً على كتابة، فتعلمته في نصف شهر حتى كتبت إلى يهود وأقرأته إذا كتبوا إليه»[90].

. عن زيد بن ثابت قال: «قال رسول الله ﷺ : إنّه تأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأهن كل واحد فهل تستطيع أن تتعلم السريانية؟ قال: قلت نعم فتعلمتها في سبعة عشر يوماً»[91] ، وكذلك تعلم رسل رسول الله لغات الأقوام التي بعثهم إليهم.

هـ. فريضة التعليم وحق الناس في التعليم:

. قال رسول الله ﷺ: «العلم ضالة المؤمن حيثما وجده أخذه»[92].

وقال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[93].

. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «تعلموا العلم فإن تعلمه قربة إلى الله عز وجل وتعليمه لمن لايعلمه صدقة وإنَّ العلم لينزل بصاحبه في موضع الشرف والرفعة والعلم زين لأهله في الدنيا والآخرة»[94].

. قال رسول الله ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة

---

(90) أخرجه البخاري في الأحكام، باب 40، حديث 7195.

(91) أخرجه الترمذي، حديث 2715، وابن حبان في صحيحه 84/12، والبيهقي 211/6.

(92) أخرجه أبو نعيم عن أنس بن مالك.

(93) ذكره السيوطي في اللآليء المصنوعة.

(94) أخرجه أبو نعيم في الحلية جـ1 ص239، وفي الفتوح للكوفي /وصية معاذ.

والرمي»[95].

. عن شهر بن حوشب قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري ونحن غلمان نسأله ، فكان يقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: سيأتيكم قوم يتفقهون، فقهوهم وأحسنوا إليهم»[96].

. كانت الشفاء من عقلاء النساء وفضلائهن، وكان النبي ﷺ يأتيها ويقيل عندها في بيتها، قال لها: «علمي حفصة رقية النمل كما علمتها الكتابة»[97].

. (خصَّ رسول الله ﷺ للنساء يوماً يجتمع إليهن يعلمهن ويعظهن)[98].

و . أهمية العلم والتعليم:

. قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سَهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنة»[99].

. قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[100].

وعنه ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[101]. وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[102].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم

(95) حديث ضعيف، انظر البيهقي 15/10.

(96) رياض المتعلمين لأبي نعيم.

(97) الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة الشفاء.

(98) أخرجه البخاري في العلم، باب 36، حديث /101 و102/ ومسلم حديث 2633.

(99) أخرجه البخاري في العلم، باب 36، حديث 101، ومسلم حديث 2633.

(100) رواه البخاري /كتاب العلم جـ1 ص16.

(101) رواه الترمذي ص325.

(102) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان.

لرضى الله عنه وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء»[103].

ز . مكانة العلماء والمعلمين:

. قال رسول الله ﷺ: «العلماء أمناء الله على خلقه»[104].

. وقال عليه الصلاة والسلام: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر»[105].

ح . اقتران التعليم بالتربية:

قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران/79].

قال ابن عباس رضي الله عنه: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره[106]، وقال الحافظ: المراد بصغار العلم ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها[107]، وقال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء/24].

قال القاضي البيضاوي: (التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً

(103) أخرجه الترمذي حديث 2682، وابن ماجه حديث 223.
(104) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب 100/1 حديث 115,
(105) أخرجه ابن ماجه حديث 228.
(106) أخرجه البخاري في العلم، باب 10 معلقاً.
(107) التراتيب ج2 ص233.

فشيئاً)[108].

يؤكد رسول الله ﷺ – في بناء هذه القاعدة في المجتمع النبوي في المدينة– أن الكتابة والقراءة أساس الحضارة والتقدم الإنساني ونرى ذلك في كل شيء من الأعمال النبوية، مفصلاً في كتابة القرآن والحديث والتأريخ الذي أمر بتدوينه مع بداية العهد النبوي وكتابة الرسائل والتشريعات والعهود النبوية إلى آخر ما هنالك من علم.

وأمر بتبليغ كل ما يصدر عنه (ليبلغ العلم الشاهد الغائب)[109]. والعلم بميادينه المختلفة وتطبيقاته على جميع المستويات، كان جانباً شديد الأهمية في الحياة النبوية، نرى نتاجه تباعاً في انتقال المجتمع إلى مراقي العزة والقوة والإدارة والقضاء والتشريع والتعليم، ليصبح العهد الراشدي ثم الأموي مسارح قطاف ثمار العهد المدني الذي أرسى فيه رسول الله ﷺ قواعد العلم والبحث والعمل في الدين والحياة، ولنرى حركة هائلة في التدوين والتأليف والبحث والاجتهاد والترجمة والإبداع.

(108) فتح الباري 162/1.

(109) ذكره البخاري في العلم، باب 37، قبل الحديث 104 معلقاً.

خامساً ـ تأسيس القاعدة الاقتصادية:

لم تكن مشكلة الاقتصاد نتاج نقص الموارد أو قلتها فقط وإنما هي مشكلة نوع العلاقة القائمة بين المجتمع والموارد المتوفرة بين أيدي الناس، ولم تكن الحالة الاقتصادية في المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ مما يشكل نظاماً اقتصادياً سليماً ومتوازناً، بل على العكس من ذلك، كان اليهود فيها يسيطرون على موارد التجارة ويتعاملون بالربا ويتحكمون بالأسعار، وكان عامة الناس ما بين مزارع وراع للشياة والإبل وصياد وصانع وجامع حطب، لا تحكمهم قيمٌ أخلاقية ولا شريعة دينية، إنما يسود بينهم الاستغلال والسيطرة والغش والفساد والظلم، مع توارث الأساليب القديمة التي وجدوها في مجتمعهم.

وكانت المهمة النبوية شاقة جداً لأن اقتصاد المدينة بحاجة لأمرين اثنين معاً، الأول: النهوض بجميع الموارد الاقتصادية من أجل توفير حاجات الناس، والثاني: وضع تشريع ديني وأخلاقي ينظم هذه الموارد ويضبط علاقة الناس بها وعلاقاتهم فيما بينهم ويشتمل الاقتصاد على: الزراعة والصناعة والتجارة والصيد والثروة الحيوانية والنباتية والماء والري والثروات الباطنية وطرق النقل ووسائله والرسوم الجمركية والنقد وضوابط هذا كله وعائدات العاملين فيه ونصيب الإدارة والدولة.

ومن أشد الأمور أهمية في الاقتصاد: قواعده وأسسه وضوابطه وأساليب التعامل فيه. وأعلى من ذلك كله الشريعة والقانون اللذان يوجهانه ويحكمانه.

آ . من هذه الأسس والضوابط العقائدية الدينية والتطبيقية مايلي:

أولاً: الاقتصاد دين، أي أن العمل جزء لايتجزأ من الدين.

ثانياً: الحلال والحرام، وفق التشريع الإلهي الذي يحدد ذلك.

ثالثاً: المساواة بين أفراد المجتمع.

رابعاً: الاستثمار فريضة ألزم الله فيها عباده لتتحقق لهم حاجاتهم وهو الذي سخر لعباده ما في البر والبحر وكل شيء.

خامساً: تحقيق العدالة وتوزيع الثروة وتحقيق التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع الواحد.

سادساً: حق المنافسة بين الناس في الكسب والملكية ولكن ضمن شروط الحلال والحرام، وضمن قواعد الأهداف العامة للمجتمع.

وسيتحقق ذلك وفق عمل نبوي متتابع ومنظم يبدأ بالزراعة والري وينتهي بقوانين الملكية والمواريث وتنظيم بيت مال المسلمين.

ب . في الزراعة:

وفيها: تحسين الإنتاج وزيادته وتوسيع الأراضي المزروعة . إصلاح الري . توفير الماء اللازم للزراعة وتشريع العلاقات الزراعية . ومما حدث على أرض المدينة:

. إصلاح الأراضي وتوسيع الزراعة:

«قال رسول الله ﷺ: من أحيا أرضاً ميتةً فهي له»[110] وقال: «من أحيا أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»[111] والإحياء هو: الغرس والزرع وحفر البئر وموطن رعي الدواب وزراعة النخيل، وأصل الإحياء إنما هو بالماء، وذلك كاشتقاق نهر أو استخراج عين أو احتفار بئر، ثم ابتنى أو زرع، أو غرس فذلك الإحياء كله.

ج . في التجارة:

. إنشاء سوق تجاري للمسلمين:

(جعل رسول الله ﷺ للمدينة سوقاً واحداً أراد أنْ يتخذها أولاً في موضع بقيع الزبير، واعترض كعب بن الأشرف أحد زعماء اليهود المناوئين للإسلام وقطع أطناب الخيام التي وضعها الرسول في ذلك الموضع، فنقلها رسول الله ﷺ إلى موضع سوق المدينة وقال: «هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج[112]» وكانت سوق المدينة فضاءً واسعاً لا بناء فيه، يضع التجار سلعهم والمكان لمن سبق، وضربت فيها الخيام يبيع فيها أصحابها ما يعرضون من حاجات مختلفة، وكان الراكب ينزل بسوق المدينة فيضع رَحْلَهُ ثم يطوف بالسوق ورَحْلَهُ أمام عينيه لايَحْجُبُه شيء)[113].

---

(110) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص121 رقم 676.

(111) المرجع نفسه رقم/703.

(112) أخرجه ابن ماجه حديث 2233.

(113) المدينة الإسلامية ص57.

د . في الحرف والصناعة:

كانت الحياة المهنية والصناعية في المدينة تتوافق مع الظروف العامة في بلاد العرب. تبدو فيها البساطة بشكل عام، فاللباس وما يتعلق بصناعة الملبوسات كان غاية في البساطة والقلة، كذلك كانت حرف كثيرة قائمة في المدينة لأداء الحاجات اليومية للناس، وهي محدودة الطابع، كالدباغة ونسيج الصوف وحوائج الركوب وأدوات المنزل وحرف البناء والخيام والسلاح.

وبدأ التحول في المدينة من خلال منبعين أساسيين:

الأول قرآني:

. قال تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ [هود /37]. فكان تعليم صناعة النجارة في قصة نوح.

. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء/80].

. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ ﴾ [سبأ/11].

فكان تعليم الصناعات الحربية والمدنية في قصة داود عليه السلام.

. قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ [النمل/44].

فكان تعليم الصناعات الزجاجية والزخرفية في قصة سيدنا سليمان والملكة بلقيس.

والثاني نبوي:

فقد أرشد رسول الله ﷺ إلى أهمية صناعة السلاح والأدوات الحربية: المنجنيق والسيوف والأقواس والسهام وغيرها. وكان أعظم توجيه صناعي قدَّمه رسول الله ﷺ قوله: «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»[114] وكان من صناعات الإتقان نقش خاتم رسول الله ﷺ وكان من الصناعات التي تقدمت في المدينة الصباغة والدباغة وقد شاركت فيها النساء أمثال: زينب بنت جحش وأسماء بنت عميس[115] وكان أهل المدينة يصنعون الخوص فتعلم منهم سلمان الفارسي ذلك[116]، وقد صُنع منبرٌ من الخشب لرسول الله ﷺ عاش إلى سنة 654 هـ[117].

هـ. في الثروة الحيوانية:

نهضت الثروة الحيوانية في المدينة بعد الهجرة وكان أهم شيء فيها العناية بالخيول والإبل والحيوانات المستخدمة في الجر والركوب، ولذلك حرُمت الدواب المهمة في الخدمات الحربية وأعطي الحصان أو الفرس من أسهم الغنائم ما يعدل ضعف نصيب صاحبه، لأهميته في ميدان القتال[118].

(114) أخرجه الطبراني في الأوسط 275/1 حديث 897، وأبو يعلى 349/7.

(115) ترجمة زينب في الإصابة وأسماء في الطبقات.

(116) ترجمة سلمان في الإصابة.

(117) وفاء الوفا للسمهودي/ص 405.

(118) انظر تحريم ذبح حيوان الركوب في كتب الفقه.

و . الملكية العامة للناس:

حدد رسول الله ﷺ بعض الموارد العامة المهمة فقال:

«الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»[119].

وتتوج هذه المعالم حقيقة خالدة أرسى قواعدها رسول الله ﷺ وهي: فريضة الزكاة والصدقات التي تشكل أساس نظام التعاون والضمان والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع. وجاءت تشريعات النظام وطرائق التعامل بين الناس ضابطة لتوظيف حركة المال في المجتمع في خدمة الناس وتقدمهم وإلغاء استغلالهم بعضهم لبعض.

(119) أخرجه أبو داود حديث 3477، وابن ماجه حديث 2472، وأحمد 364/5.

سادساً ـ تأسيس القاعدة الإدارية والأمنية والدعوية:

مرَّ معنا كيف كانت بداية بناء المجتمع المدني في إقامة عهد المدينة الذي فيه رسول الله ﷺ رئيس المدينة إليه تعود أمور السلم والحرب والأمن الداخلي وسياسة العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد، كما يعود إليه أمر العلاقات القائمة بين هذا المجتمع وبين القبائل الأخرى القريبة والبعيدة، واستمر في ترسيخ القيم الإسلامية الجديدة في مجتمع المدينة، يسود بينهم التعاون والتكافل والدفاع المشترك.

وكانت الأسس التي أقامها فيما بين المسلمين:

1. طاعة الله ورسوله والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله.
2. الشورى فيما بينهم.
3. بذل كل ما يملكون من نفس ومال ومتاع في سبيل دين الله والدفاع عن مقدساته وحرماته.
4. المشاركة الجادة والمستمرة في بناء الحياة الإسلامية الجديدة بكل المجالات.
5. مشاركة المرأة في بناء هذه المدينة الإسلامية.
6. احترام الإنسان والحرص على سلامته والتمتع بكل حقوقه التي منحها الله له غير منقوصة وبالتالي بذل كل الجهود لخدمته وإيصال كلمة الحق إليه، وله حرية الاعتقاد لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: 256].

الفصل الثاني

الأسس الدعوية
في المدينة النبوية

الأسس الدعوية
في المدينة النبوية

١ ـ أوليات رسول الله ﷺ في المدينة

أولاً . أول سورة مدنية أنزلت على رسول الله ﷺ في المدينة:

سورة المطففين: عن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك[1].

إن العلاقات المادية والمعنوية بين الناس تقوم أساساً على العدالة والمساواة، ورسول الله ﷺ بعث لتحقيق هذه العدالة والمساواة، ومع قدومه المدينة بدأت مرحلة تطبيق ذلك، ولا يمكن لمجتمع أن يحقق نصرة الحق ووحدة العمل إذا كانت الفرقة والتمايز قائمين بين أفراده، والعداوة والبغضاء تزداد يوماً بعد يوم بسبب الاستغلال والظلم، فالعلاقات المادية، ووظيفة المادة بين أيدي الناس ترتبط بالدين، (والدين المعاملة) فلا بد من أن تكون المعاملات المادية عادلة تنظمها شريعة الله ويطبقها الناس بحقيقتها في حياتهم اليومية.

ولذلك نجد أن من أخطر المفاسد الممزقة للمجتمع الإنساني الكيل بين الناس بمكيالين وخاصة ما يقوم به أصحاب المبادلات المادية من بيع وشراء. ذلك

(1) أخرجه ابن ماجه حديث 2223، والنسائي في الكبرى 508/6، والبيهقي 32/6.

لأنه يورث العداوة والبغضاء، وحب الانتقام والعدوان، والإسلام يعتمد الوحدة الاجتماعية والترابط بين الناس الذي يتحقق من خلال العدالة والمساواة بين الجميع، ومن المهم حقاً أن ربط القرآن الكريم في سورة المطففين بين العلاقات المادية الفاسدة والعذاب المقيم للذين يأكلون أموال الناس ويبخسونهم حقوقهم، وفي الوقت نفسه ربط بين العلاقات المادية الصحيحة وبين صحة الإيمان، والمؤمنون هم الذين يخافون الله، ويخافون الوقوف بين يدي الله جل جلاله.

وإذا كانت العلاقات المادية من صلب الدين، والدين المعاملة، فإن صحة العلاقات المادية هي الضمان الحقيقي لبناء مجتمع إسلامي صحيح البنية.

ثانياً . أول حديث لرسول الله ﷺ في المدينة:

عن عبد الله بن سلام قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل[2] الناس إليه وقيل: قدم رسول الله ﷺ فجئت أنظر، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يتكلم قال: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلون الجنة بسلام»[3].

تقول السيدة عائشة عن كلام رسول الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ لا يسرد سردكم هذا، كان يتكلم بكلام يُبَيِّنَهُ فصلاً يحفظه من يسمعه»[4].

(2) انجفل الناس إليه: ذهبوا نحوه مسرعين.

(3) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة 433/9.

(4) رواه الترمذي /3639 وأحمد 257/6.

وقالت: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه»[5].

وعن الحسن بن علي قال: «سألت خالي هنداً فقلت: صِفْ لي منطق رسول الله ﷺ فقال: كان لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكت، يفتتح الكلم ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، فصْلاً لا فُضُول فيه ولا تقصير»[6].

ثالثاً. أول صلاة على الغائب على الصحابي الجليل البراء بن معرور:

«مات البراء بن معرور قبل قدوم رسول الله ﷺ، وأوصى أن يوجَّه إلى الكعبة، وصلى رسول الله ﷺ على قبره»[7] بعد قدومه إلى المدينة.

«والبراء بن معرور كان تواقاً للكعبة من قبل فهو الذي صلى باتجاه الكعبة عند قيام الأنصار بالتوجه إلى مكة لبيعة العقبة الثانية، ولم يوافقه بقية الأنصار، وقدم إلى النبي يذكر له ما فعل في سفره وصلاته صوب الكعبة فقال له رسول الله ﷺ: كنت على قبلة لو صبرت عليها»[8].

رابعاً. بناء المسجد النبوي الشريف أول عمل عمراني دعوي:

مكث رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب منذ اليوم الأول لوصوله إلى المدينة المنورة وكان مبرك ناقته عند المربد، إلى أن تم بناء المسجد والحجرات.

قال الزهري: بركت ناقة النبي ﷺ موضع مسجده وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار، كانا

---

(5) أخرجه البخاري في المناقب، باب 23، حديث 3567، ومسلم حديث 2493.

(6) الشمائل للترمذي.

(7) وفاء الوفا للسمهودي ج1 ص270.

(8) انظر سيرة ابن هشام ج2 ص81 وما بعد.

في حِجْرِ أسعد بن زرارة، فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد، ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان جداراً ليس له سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، وكان يصلي فيه ويُجمِّعُ أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله ﷺ، وكان فيه شجرة غرقد وخِرَبٍ ونخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالخرب فسويت وبالنخل والشجر فقطعت وصفت في قبلة المسجد وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع والجانبين مثل ذلك أو دونه، وجعل أساسه ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللبن، وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرةْ

وكان يقول:

هذا الحِمالُ لا حِمالُ خيبر هذا أبرُّ رَبَّنا وأطهَر

وجعل الصحابة يرتجزون وهم ينقلون اللبن ويقول بعضهم في رجزه:

لئن قعدنا و الرسول يعمل لَذاكَ منا العملُ المضلَّلُ

وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبواب، وجعل عمدهُ الجذوع وسقفهُ بالجريد، وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللبن وسقفها بالجريد والجذوع[9].

كانت أرض المسجد تراباً وسقفه من جريد النخل وارتفاعه كعريش موسى يمكن للمصلي أن يلمسه إذا مد إليه يده، ثم تطورت أحوال المسجد، حيث بني فيه المِنْبَرُ وفرشت أرضه بالحصى وكان في صدره مكانٌ له مظلة يسكن فيه أصحاب الصُفَّة من فقراء المسلمين ومن لا مأوى لهم، ثم تعرض المسجد لتحويل

(9) فقه السيرة النبوية لابن قيم الجوزية ص94.

القبلة وتوسيع المساحة وغير ذلك من التبدلات.

إن نظرة دقيقة لبناء المسجد النبوي يتبين لنا ما يلي:

1. كان بناء المسجد أول عمل في قباء وكذلك كان بناء مسجد المدينة أول عمل لرسول الله ﷺ، في المدينة.

2. وكان موقعه يتوسط المدينة المنورة ليتحول بعد قليل إلى مركز النشاط العام العمراني والاقتصادي والاجتماعي والتربوي والسياسي والعسكري وليكون هذا العمل سنة للمسلمين بعد ذلك حيث يبدؤون عمران قراهم ومدنهم ببناء المسجد وليكون مركز النشاط فيها.

3. بساطة المسجد من حيث الأسس التقنية والمواد الأولية، وفي الوقت ذاته كان معهد إعداد الرجال وبناء المجتمع من جميع جوانبه بناء حضارياً سامياً، فقد كان دارَ عبادةٍ، ومجلسَ شورى، ومعهدَ علم وتعليم وتربية، ومجلسَ ضيافة وحوارات مع الوفود القادمة إلى رسول الله ﷺ، ومأوى للمهاجرين، ومصنعاً للبطولة، وحبسَ الأسرى، ومجلسَ دعوةٍ إلى اللهِ. إلى غير ذلك من المهمات الجليلة.

4. وإذا كان رسول الله ﷺ القدوة والمثل الأعلى في بنائه ووضع أساسه وتحديد قبلته، فهو في نفس الوقت القدوة والمثل الأعلى للمسلمين في القول والعمل والسلوك يرسم أمامهم بالمثل الأعلى الممكن بشرياً، فكان الصحابة من حوله يتعلمون ويتأدبون ويعملون وتتزكى نفوسهم.

5. وكان بناء حجراته وسُكناه بجوار المسجد، وبابهُ مشرع إليه، يجعله وسط المجتمع الجديد، قريب من الجميع، يسهل لقاؤه بهم ومشورتُه لهم وتعاونهم وتضافرهم

حوله ومعه، وبه، فكانوا كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً.

6. وعندما ازدادت المدينة اتساعاً وكثر سكانها وصار من العسير على الأطفال الوصول إلى المسجد أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الأحياء لتلبية حاجاتهم العبادية والتعليمية والتربوية، والمسجد النبوي مسجدهم الجامع يلتقون فيه ويتلقون مهماتهم من رسول الله ﷺ.

7. وكان المسلمون يستنيرون ليلاً بإشعال سعف النخل في مؤخرة المسجد إلى أن جاء تميم الداري بالسراج ينير به المسجد ليلاً، مما ساعد على اتساع المجال للاستفادة من المسجد النبوي[10].

استغرق عمران المسجد وحجرات رسول الله ﷺ سبعة أشهر[11] ورسول الله ﷺ يسكن في دار أبي أيوب الأنصاري، ثم نقل سكنه إلى حجرتي سَوْدة بنت زمعة وعائشة زوجتي رسول الله ﷺ، ومن ثم بنيت باقي الحجرات تباعاً.

---

(10) السيرة الحلبية ج2 ص87.

(11) الوفا بأحوال المصطفى ج1 ص/251.

خامساً ـ ابتداء التأريخ الإسلامي من الهجرة النبوية:

(أمر رسول الله ﷺ بالتأريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع الأول)[12] قال أبو جعفر: (فذكر أنهم كانوا يؤرخون بالشهر والشهرين من مقدمه إلى أن تمت السنة)[13] وعن سهل بن سعد قال: (وما أصاب الناس العدد، ما عدّوا من مبعث رسول الله ﷺ، ولا من وفاته ولا عَدّوا إلاَّ من مقدمه المدينة)[14].

وفي التأريخ عُدَّ شهر المحرم رأس السنة، فعن عبيد بن عمير قال:

(إن المحرم شهر الله عز وجل، وهو رأس السنة فيه يكسى البيت ويؤرخ التاريخ ويضرب فيه الورق ـ النقد ـ وفيه يوم كان تاب فيه قوم فتاب الله عزَّ وجل عليهم)

الفصل الثالث

التكوين الاجتماعي العام في المدينة
وبناء القاعدة الفكرية والثقافية
وتشكيل الرأي العام

التكوين الاجتماعي العام في المدينة وبناء القاعدة الفكرية والثقافية وتشكيل الرأي العام

مقدمة:

كما المجتمعات العامة كان مجتمع المدينة عشية قدوم رسول الله ﷺ إليها،

عقدياً: فيهم المسلم والوثني والكتابي.

واجتماعياً: فيهم الحر العبد، والغني، والفقير، والعربي والإفريقي، المزارع والصانع، والتاجر والراعي والصياد.

وقبلياً: فيهم القرشي والمدني والمولى والحليف.

وحين بدأ الإسلام فيها وأخذت المدينة تنهض يوماً فيوماً، بدأت تظهر على ساحة المدينة نماذج حياتية جديدة، يمكن تميز نموذجين واضحين فيها، الأول: أهل النفاق، والثاني: أهل الإيمان.

أولاً: معالجة النفاق في المدينة:

الذي يلفت الانتباه هو كيفية معالجة رسول الله ﷺ ومعاملته للمنافقين وأهل الكتاب، على الرغم من شدة الأذى الذي يحدثونه في المجتمع، فقد كانت معالجته لهم ومعاملتهم تنطلق من قيم وقواعد دعوية وأخلاقية وإيمانية، نذكر منها:

1. الالتزام بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:125].

2. الصبر على أذاهم، ومع الصبر تعميق الإيمان بين الناس والرفق بالمنافقين والكافرين، كي لا ينضم إليهم أبناؤهم وأهلوهم، وللتأكيد على رابطة الدين ومنع رابطة العصبية، فقد كان عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول من أشد الرجال حباً لله ولرسوله وللمؤمنين وهو ابن رئيس المنافقين.

وقد كان حنظلة بن أبي عامر الفاسق من أشد الصحابة حباً لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو الذي توجه إلى أحد صبيحة زفافه ولم يغتسل بعد وكان أبوه أبو عامر يشارك قريشاً حربها للإسلام والمسلمين في أحد، وهو الذي قام بحفر الحفر لإعاقة المسلمين في معركتهم.

3. متابعة الرسالة وتطبيق الإسلام، حيث لا وقت للانشغال عن ذلك بأي شيء، فالبناء هو أساس العمل الإسلامي النبوي وليعلم الجميع أن الإسلام مفتوح الأبواب لجميع الناس فهو كافة للناس رحمة ونوراً وهدى. ولعل أعظم تعبير صدر بحق عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول يوم طلب عُمرُ أنْ يقتله لما فعله في غزوة بني المصطلق: (أَتُحب يا عمر أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه)[1]، إن معالجة النفاق يتم بالعلم والتعليم والعمل والتوعية وتزكية النفوس والصبر على الأذى ومعاملة المنافقين بالصبر والمتابعة وتفويت الفرص عليهم وقطع دابر مواقفهم وتعميق صلات أوليائهم بالله. مما يبطل حجتهم ويفشل خطتهم ويقضي عليهم ويعد هذا في الوقت نفسه فرصة لهم لعلهم إلى الحق يرجعون.

(1) رواه البخاري /4622 ومسلم /2584.

هذا كله فيما يتعلق بأهل الكفر والنفاق أما ما يتعلق بأهل الإيمان فإنهم يزدادون يوماً بعد يوم رسوخاً في الإيمان، وصدقاً في العمل، وإصراراً على التضحية والفداء زيادة في العدد واتساعاً في الدعوة والانتشار ونصراً بعد نصر فكانوا جنود الله المخلصين وعلى أكتافهم وبجهودهم قامت دولة الإسلام وحضارته.

يعود ظهور النفاق في المدينة بعد الهجرة إلى عنصرين أساسيين هما: اليهود الذين حاولوا خداع رسول الله ﷺ وتشويه الحقائق الدينية العظيمة والعبث بآيات الله وتشجيع بعض الناس للانضمام إليهم في محاربة الإسلام، وبطريقة النفاق ـ أي إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ـ بقصد تحقيق سلامتهم وتمكينهم من تمزيق المجتمع الإسلامي الجديد، والعنصر الثاني عبد الله بن أُبيِّ بن سلول الذي اجتمع الأوس والخزرج على جعله ملكاً عليهم بعدما جرى بينهم في حرب بعاث، وبدؤوا بصناعة تاج من خرز له ليجعلوه ملكهم، وإذا بالرسول ﷺ يصل إلى المدينة وينفضُّ الناس عنه ويخسر بذلك فرصة سيادته عليهم، فأخذ يتظاهر بالإيمان ويبطن الكفر، يناصره على ذلك عدد من أبناء المدينة.

وقد مرَّ معنا في الروايات السابقة ما كان من مواقف، اليهود ونستعرض فيما يلي بعض ما وقع من عبد الله بن أُبيِّ بن سلول:

قدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أُبيِّ بن سلول كان من الخزرج لا يختلف في شرفه في قومه اثنان، فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضَغِنَ ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبَوْا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِرّاً على نفاق وضغن، فكان رأس المنافقين وإليه

يجتمعون[2]، وكان من ظواهر نفاقه:

. يوم خرج رسول الله ﷺ من قباء يوم الجمعة يريد المدينة صلى الجمعة في الوادي «ثم أخذ عن يمين الطريق حتى جاء بني الحُبْلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أُبيٍّ ، فلما رآه ابنُ أُبيٍّ وهو عند مُزاحم «وهو أطم» مُحتَبياً قال: اذهب إلى الذين دَعَوْك، فَانْزل عليهم فقال سعد بن عبادة: لا تجد يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه عليها، ولكن هذه داري»[3].

. ما وقع من أبي عامر الراهب (الفاسق):

«وكان مع عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول رجل من الأوس هو في قومه شريف مطاع هو: أبو عامر بن صيفي بن النعمان وهو أبو حنظلة . غسيل الملائكة . وكان قد ترهب ولبس المسوح فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، وأتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم، قال: فأنا عليها فقال له رسول الله ﷺ: إنك لست عليها، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال والكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً، فقال رسول الله ﷺ: أجل، فمن كذب فعل الله ذلك به[4]. (فكان هو الذي خرج إلى مكة وحالف المشركين وشاركهم حَرْبَهُم ضد رسول الله ﷺ) فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا الراهب قولوا الفاسق».

(2) وفاء الوفا للسمهودي ج1 ص219.

(3) المرجع نفسه ص/257.

(4) المرجع السابق، ص216.

وكان أبو عامر أشد الناس معرفة بحقيقة رسول الله ﷺ وأنَّهُ النبي المنتظر لما قرَأَهُ من الكتب وما عَلِمَهُ مِن أحبار يهود ورهبان نصارى الشام، فلما رأى رسولَ اللهِ كَذَّب وادَّعى أنه ينتظرُ النبي الموعود، وستكون له مواقف كثيرة ضد المسلمين، وقد مات شريداً طريداً وحيداً.

. وكان ممن اجتمع إلى رئيس المنافقين عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول: رُوَّيُ بن الحارث، وجُلاس بن سويد بن الصامت وأخوه الحارث، وبجاد بن عثمان بن عامر، ونبتل بن الحارث، ووديعة بن ثابت، وبشر ورافع ابنا زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر، ومعتب بن قشير وغيرهم[5].

وزعم يهود المدينة أنهم سحروا المسلمين فلن ينجبوا أولاداً[6] وكذبهم الله وكان أول مولود من المهاجرين عبد الله بن الزبير وكان أول مولود من الأنصار النعمان بن بشير، وسقطت شائعات يهود المدينة، وفَرِحَ المؤمنون بذلك فرحاً شديداً.

بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة والمسجد يُبنى في الأشهر الأولى تُوفيَّ أبو أمامة أسعد بن زرارة وكان من أصحاب بيعة العقبة ونقيب بني النجار، مات بالذبحة أو الشهقة، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة لِيَهودَ ومنافقي العرب، يقولون: لو كان نبياً لم يَمُتْ صاحبه! ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً»[7].

(5) السيرة النبوية لابن هشام ج166/2.

(6) البداية والنهاية لابن كثير ج3ص234.

(7) السيرة النبوية لابن هشام ج2ص153.

ثانياً: بناء القاعدة الفكرية والثقافية وتشكيل الرأي العام:

من هذا وما علمنا من مواقف أحبار اليهود والمنافقين منهم الذين تظاهروا بالإسلام والمنافقين من العرب ومن أفكار يطرحونها، وثقافة تظهر في معاملاتهم نتبين أن الثقافة العامة السائدة بين الناس في المدينة تعود لمصدرين أولهما: الفكر المشوّه لأهل الكتاب وثانيهما الفكر الخرافي الذي كان شائعاً لدى العرب الوثنيين، ومثل هذه الثقافة الشائعة بين الناس كفيلة بسوق الناس إلى الصراعات العصبية والأنانية والتفكير الخرافي والتشاؤم والطِيَرَةِ والبُعْدِ عن جوهر الحقيقة والمعرفة العلمية، لذلك نرى بناءً جديداً يشيده رسول الله ﷺ في المدينة، في عقول الناس ونفوسهم، بفكر علمي إيماني أخلاقي بَعيدٍ كُلَّ البُعدِ عن الوهم والخرافة والضياع.

. في مجال الماضي وأحداثه وتجارب الأنبياء والرسل والثقافة التاريخية:

. أثبت رسول الله ﷺ صحة الرسالات والرسل وبراءتهم من الكذب والتزييف الذي كان مصدره عبث أهل الكتاب. وبين لهم وحدة مصدر الدين من الله تعالى:

. وقال في رسالته الدينية إلى البشرية ورسائل الأنبياء:

«مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنةٍ من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[8]. وفي هذه وحدة الدين.

(8) أخرجه البخاري في المناقب، باب 18، حديث 3534، ومسلم حديث 2287.

ـ وبين رسول الله ﷺ للناس أخلاقية النظر إلى الأمم والموقف منها قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/134].

ـ وبين أهداف معرفة الماضي وفوائده في تصحيح عقيدة الناس وأعمالهم:

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود/120].

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف/111].

ومن الممارسات الفكرية والعملية:

ـ الصلوات الخمس في اليوم والليلة يؤديها المسلمون كل يوم يقفون فيها خلف رسول الله ﷺ، ويجتمعون في المسجد ويستمعون إلى رسول الله ﷺ يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكي أنفسهم، ويقيم فيما بينهم روابط الأخوة والمحبة والتعاون وينفي عنهم الرذائل والمفاسد والمضار، ويحلُّ في عقولهم وقلوبهم العلم والمعرفة وضوابط العقل والفكر ويغرس في وجدانهم قِيَمَ الإسلام ومُثُله العليا، ويَحُضُّهم على مكارم الأخلاق.

ـ ويقيم فيما بينهم رجالاً يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران/104]. ومن مهماتهم الحفاظ على أمن الناس وأعراضهم وقيم الإسلام ومبادئه وأخلاقه.

. دور المسجد النبوي:

ولذلك كان دور المسجد أول عمل إيجابي نحو إقامة الدولة في الإسلام، فكان الجامعة التجريبية التي تأخذ على عاتقها مهمة تحويل القيم والمبادئ الإسلامية إلى سلوك واقعي[9]. وقد حلَّ محل السقائف التي كانت مجالس القبائل في المدينة كسقيفة بني ساعدة وسقيفة الريان في منازل بني بياضة[10]، والتي كانت القبائل تلتقي إليها تمارس فيها الزعامة والثقافة والمشورة ...

. وحل بالتالي فكر الإسلام وثقافته تدريجياً محل الثقافة والفكر الوثني والكتابي المشوَّه وصار بين الناس: ثقافة الإيمان، وحب العمل، وطلب العلم، و(اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)[11] و(فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[12] و ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء/114] ولهذا كله: غاب عن الساحة الفكرية والثقافية السحرُ والكهانةُ والتنجيمُ، وبدأ يتلاشى فكر العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب وانحصر كل ذلك في بطائن المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب، وأخذت تظهر بين الحين والحين منهم، يلتمسون بذلك تمزيق الأمة وتشويه فكرها وتغيير مسارها.

---

(9) المدينة الإسلامية، محمد عبد الستار عثمان ص359.

(10) المرجع نفسه ص52.

(11) (صحيح البخاري - (ج 5 / ص 230) عن عدي بن حاتم

(12) صحيح البخاري - (ج 18 / ص 437) عن أبي هريرة.

. وحضّ على التفكر واستخدام العقل الذي يكشف الحقائق ويلغي العمى والضلال وألحَّ رسول الله ﷺ على طلب المعرفة بالسؤال، فكان يقول: «سلوني عما شئتم»[13].

. وقال تعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة/73]

. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر/67]

وقد مر معنا بحْثُ تأسيس القاعدة العلمية مما يغني عن تكراره هنا.

(13) أخرجه البخاري في العلم، باب 28، حديث 292، ومسلم حديث 236 من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الفصل الرابع

بناء القاعدة الدفاعية
للمدينة النبوية

بناء القاعدة الدفاعية للمدينة النبوية

مقدمة:

ستة أشهر من العمل والدأب وتأسيس حياة جديدة في المدينة وكأن المسلمين فيها خلية نحلٍ منظمة واعية تعمل بجد ونشاط، وأصبحت المدينة مدينة حياة وإيمان وإسلام، بُنِيَ فيها المسجد وأقيم بين الناس عهد المدينة وعُقدت المؤاخاة، وَوُزِّعت الأراضي خُططاً، وبُنيت المساكن الجديدة، وأُصلحت الأقنية، واستُصلحت الأراضي وزرعت، وحفرت الآبار، وصحَّت بيئة المدينة وبدأت الصلوات في المسجد وبُنيت حُجرتا عائشة وسودة وانتقل رسول الله ﷺ إلى داره، بعد أن مكث في دار أبي أيوب، وأُحصي المسلمون فبلغ عددهم ألفاً وخمسمئة رجل[1] وأحصيت الإبل والخيول والسيوف والسلاح.

وآن الآوان لعقد تحالفات أمنيَّةٍ بين مدينة رسول الله ﷺ وبين القبائل العربية القريبة من المدينة، لإقامة سور من الأمن والتحالف وإنهاء حالة العداوة والغزو الذي كان يهدد الحياة المدنية الآمنة المستقرة، وهذا يستلزم إعداد الرجال وخطة عمل واعية هادفة منظمة واضحة الغاية والهدف مأمونة النتائج بعد ذلك، إن حياة المسلمين في المدينة تواجه تحديات خطيرة وينتظرهم مستقبل إنساني شامل، ولهذا كان التحدي العسكري في المقام الأول في المواجهة بعد استجماع القوى المناهضة في داخل المدينة وخارجها.

---

(1) راجع الوثائق السياسية للعهد النبوي: محمد حميدالله طبعة سادسة ص/65.

إنَّ القوة بكل أشكالها ذات أهمية عظمى في حماية الحق والمحافظة على الأرض والعرض والمال والدين، ورسول الله ﷺ يتلقى من ربه جل جلاله تشريع القتال وأهدافه وأخلاقه ومعاملاته ، وينظم جميع العلائق المترتبة عليه:

أ . الإذن بالقتال:

قال الله عز وجل: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج41/39] تبين هذه الآيات أسباب الإذن بالقتال هي:

1- ظلم قريش للمسلمين، والعدوان عليهم وإخراجهم من بلادهم.
2- محاربة قريش للدين والإيمان.
3- ضرورة دفع الظلم وإيقاف المعتدين عند حدودهم لضمان سلامة المؤمنين ودور عبادتهم.

ولقد وضعت زعامة الشرك في مكة أيديها على أملاك ومساكن المهاجرين وتَصرَّفت بها.

ومن الحقائق المهمة التي استوجبت الإذن بالقتال محاولات قريش استعداء بعض زعماء الأوس والخزرج على المسلمين. (فقد كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول ومن كان يعبد الأوثان معه من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ

يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر): «إنكم آويتم صاحبنا وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً وإنّا نقسم بالله لتقتلنه أو لتخرجُنَّهُ أو لنستعينُ عليكم بالعرب ثم لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم»[2].

ولم يتحقق لمشركي قريش ما أرادوا، فتوجهوا بعد ذلك إلى طلب نصرة يهود المدينة وكذلك ما وقع لسعد بن معاذ أثناء طوافه ببيت الله الحرام مع أمية بن خلف: رآه ابو جهل يطوف حول بيت الله فقال: (ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويْتُم الصُباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان . أمية بن خلف . ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد . ورفع صوته عليه .: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك إلى المدينة. فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي). وكان ذلك بعد الهجرة بقليل[3].

ب . مشروعية بناء القوة وإعداد العدة:

ليس عيباً في أمة أن تكون قوية الشوكة تحمي بيضتها، وليس إرهاباً أن يكون لها جيش قوي عتيد، لأن السر كامن في أخلاقية استخدام القوة وليس في وجودها ذاته قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال/60].

إن العيب الحقيقي إنما هو في غياب القوة في الأمة لأنها تصبح عاجزة عن الدفاع عن وجودها.

(2) الوثائق السياسية لحميد الله.

(3) البداية والنهاية لابن كثير ج3، ص258.

ج . العدو الواجب قتاله:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ [البقرة/193.190].

د . معاملة المسلمين لغير المسلمين الذين لا يحاربونهم:

والمسلمون بطبيعة دينهم لا يَستَعْدون أحداً ولا يجوز لهم العدوان على غيرهم، بل عليهم أن يقيموا علاقاتهم الحسنة مع كل الناس غير المعتدين، وفي ذلك كان أمر الله جل جلاله للمسلمين فقال: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩ ﴾ [الممتحنة/9.8].

هـ ـ البدايات الدفاعية:

كانت البداية الدفاعية التي عمل بها رسول الله ﷺ، تعتمد ضمان أمن المدينة من الداخل ـ وإحاطة المدينة بسور من التحالفات مع القبائل العربية القريبة منها.

أولاً: الأمن داخل المدينة:

إلى جانب عهد المدينة الذي عقده رسول الله ﷺ مع قبائل أهل المدينة والذي تم فيه ضمان الأمن والأمان بين الجميع وأنهم لا يحدثون حدثاً ولا يؤون محدثاً ولا يعينون أحداً من قريش، كانت الحراسة دائمة لرسول الله ﷺ ولأنقاب المدينة وقائد الحراسات عمر بن الخطاب ورجال الصفة، وكان يتناوب الحراسة لرسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله وغيرهم. وستتطور هذه الدفاعات فيما بعد، بعد تآمر يهود المدينة على المسلمين، وكان من وسائل الأمن إقامة الرصد حول المدينة وعيوناً من المسلمين الذين يكتمون إسلامهم ويبلغون رسول الله ﷺ بحركات أعداء الإسلام.

ثانياً: **الغزوات والسرايا وعقد تحالفات دفاعية مع القبائل العربية:**

شهدت الأشهر الاثنتا عشرة من الشهر السابع للهجرة إلى غزوة بدر الكبرى الغزوات والسرايا التالية:

1- **سريةُ حمزة** بن عبد المطلب في رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجرة النبي ﷺ :

وكان عددهم ثلاثين راكباً جميعهم من المهاجرين، فبلغوا سيف البحر يعترض لعير قريش قد جاءت من الشام تريد مكة فيها أبو جهل في ثلاثمئة راكب من أهل مكة، فالتفوا حتى اصطفُّوا للقتال، فمشى بينهم مجديّ بن عمرو، وكان حليفاً للفريقين جميعاً، وحال دون وقوع قتال وعاد حمزة برجاله إلى رسول الله ﷺ وأعلمَ رسول الله ﷺ بما عمله مجديُّ بن عمرو، فقدم رهط مجديُّ بن عمرو على النبي ﷺ فكساهم وصنع لهم خيراً وذكره فقال: (إنَّهُ ما علمتُ ميمون النقيبة مُبارك الأمر)[4].

2- **سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ** في شوال على رأس ثمانية أشهر من مهاجرة النبي ﷺ :

ورابغ على عشرة أميال من الجحفة. خرج عبيدة في ستين راكباً، فلقي أبا سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ، وأبو سفيان يومئذ في مئتين وكان سعد بن أبي وقاص قد رمى بكل سهامه ولم يحدث قتال وانصرف كل

(4) المغازي للواقدي ص/9 والطبقات الكبرى لابن سعد جـ 2ص6.

فريق لشأنه، والسرية جميعاً من المهاجرين[5]. وفي هذه السرية فَرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، توصَّلا بالمشركين لينضمَّا إلى المسلمين بعد منعهما من الهجرة.

3- **سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرَّار** في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة:

وكان مع سعد عشرون رجلاً لملاقاة عير لقريش ووصل الخرَّار وقد جازت العير بالأمس، ولم يلقوا كيداً وجميع أفراد السرية من المهاجرين[6]، وعادت إلى المدينة.

4- **غزوة الأبواء[7]: (غزوة ودَّان)**

ثم غزا رسول الله ﷺ في صفر على رأس أحد عشر شهراً حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش فلم يلق كيداً. وفي هذه الغزوة وادع بني ضمرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ولايعينوا عليه أحداً، ثم كتب بينهم كتاباً ثم رجع. وكانت غيبته خمس عشرة ليلة[8]. وكان الذي وادعهُ مخشي بن عمرو الضَمْريّ[9] وكان سيدهم

(5) المرجع نفسه ص/10 والطبقات ج7/2.
(6) المرجع نفسه ج2، ص7.
(7) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرين ميلاً، معجم البلدان ج1ص93.
(8) المغازي للواقدي ص/11.
(9) السيرة النبوية لابن هشام ج2ص/241.

في زمانه.

5- **غزوة بُواط** في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة: خرج رسول الله ﷺ في مئتين من أصحابه يعترض لعير قريش، فيها أمية بن خلف ومئة رجل من قريش وألفان وخمسمئة بعير، ثم رجع ولم يلقَ كيداً[10].

6- **غزوة بدر الأولى**:

ثم غزا رسول الله ﷺ في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً في طلب كرز بن جابر الفهري، أغار على سرح المدينة، وكان يرعى بالجمَّاء[11] ونواحيها حتى بلغ بدراً ولم يدركه[12].

7- **غزوة ذي العُشيرة**:

ثم غزا رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة على رأس ستَّة عشر شهراً من الهجرة يعترض لعيرات قريش حين أبدأت إلى الشام، فندب أصحابه فخرج في خمسين ومئة . ويقال في مئتين . وكان قد جاءه الخبر بفصول العِير من مكة تريد الشام، قد جمعت من قريش أموالها فهي تلك العير. فبلغ ذا العُشيرة وهي لبني مُدلج بناحية ينبع، فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهي العير التي خرج لها

(10) الطبقات الكبرى ج2ص12.

(11) الجماء: تبعد عن المدينة ثلاثة أميال.

(12) المغازي للواقدي ص12.

أيضاً يريدها حين رجعت . فكانت غزوة بدر . وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[13].

نتبين من هذه الغزوات والسرايا التي وقعت ما بين الشهر السابع للهجرة والشهر السادس عشر الحقائق التالية:

أولاً: إنّ هذه السرايا والغزوات توجهت في ثلاثة أهداف:

1- عقد تحالفات مع القبائل المهمة التي تسكن بين مكة والمدينة وتمتد من جبال الحجاز إلى ساحل البحر، والتي لابد لقوافل قريش من المرور في أراضيها وهي قبائل بني ضمرة وبني مُدلج وخزاعة.

2- تهديد طريق تجارة قريش بين مكة وبلاد الشام ومحاول السيطرة على قوافلها التجارية للتعويض عما سلبته قريش من المهاجرين.

3- فرض الأمان حول المدينة ومعاقبة من تسول له نفسه الإغارة على سرح المدينة وأراضيها.

ثانياً: كان جميع المشاركين في هذه الغزوات والسرايا من المهاجرين من قريشٍ ولم يشاركهم أحد من الأنصار . ربما يعني ذلك الرغبة في حصر الأمر بالمهاجرين أصحاب الحق في الإغارة على قوافل قريش لعلهم يسترجعون ما اغتصب من حقوقهم . وربما يعني ذلك طبيعة شروط البيعة التي حددت الدفاع عن رسول الله وأصحابه في حدود المدينة ولم يحن الوقت بعد

(13) الطبقات الكبرى ج2ص9.

لمشاركتهم العسكرية.

ثالثاً: تعددت قيادات السرايا واختلف عدد المشاركين في كل منها وذلك وفق المنهج العسكري النبوي في بناء الجيش وصنع القادة العسكريين، فالسرية الأولى لم تجاوز الثلاثين راكباً من المهاجرين بينما وصل عدد أفراد غزوة ذي العشيرة مائتي رجل.

رابعاً: يمكن التوقف عند نوع العلاقة النبوية مع بني ضمرة وبني مدلج فقد ورد في سرية حمزة ذكر مجديّ بن عمرو وأنه كان حليفاً للفريقين، فأشاد رسول الله ﷺ بذكره يوم قدم قومه إلى المدينة، وشيء آخر يثير السؤال، من الذي عقد التحالف بين رسول الله ﷺ وبين بني ضمرة؟ ومتى وقع ذلك؟ في قراءة ترجمة عمرو بن أميّة الضمري في أسد الغابة ورد الآتي: أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم هاجر إلى المدينة، فهل كان عمرو بن أمية هو صاحب هذه المهمة العتيدة؟

. وفي إقامة التحالف مع بني مدلج حلفاء بني ضمرة نتبين إقامة هذا السد المنيع الذي يقي المسلمين شرَّ الأخطار المحدقة القادمة من جهة مكة.

خامساً: كان أعظم مسرح لأحداث المعركة مع قريش في غزوة بدر هو وادي بدر والأراضي المجاورة له، وتعود جميعها لبني ضمرة، وكان رسول الله ﷺ يقيم فيها عيون المسلمين وكشافيهم ومعاركهم مع مشركي قريش.

الفصل الخامس

بناء الأسس الاستقلالية
للشخصية الإسلامية

بناء الأسس الاستقلالية للشخصية الإسلامية

ستة عشر شهراً مضت من الهجرة النبوية، عمل رسول الله ﷺ فيها حواراته مع أهل الكتاب وكانت الصلاة خلالها باتجاه بيت المقدس، ولم يدخل في الإسلام إلا نفر قليل، وبدأت العداوة تتزايد ظهوراً من أحبار اليهود وعامتهم في مواجهة الإسلام، وفي الوقت نفسه اتسعت المباني السكنية في المدينة وازداد عدد المهاجرين إليها وكثر المسلمون فيها من أبناء الأوس والخزرج وبدأت تظهر على ساحة المدينة النبوية معالم الشخصية الاستقلالية للإسلام والمسلمين، وقد تمثلت الأسس الاستقلالية بالمظاهر التالية:

أولاً: **الصلاة بأوقاتها الخمسة** في اليوم والليلة ووظائفها الاجتماعية والأخلاقية والنفسية والعبادية وخطبة الجمعة كل أسبوع وإلقاء بيان عام عن أحوال الأمة.

ثانياً: **المسجد النبوي والوظائف التي يؤديها:**

باعتباره دار عبادة، ودار شورى الأمة، ومعهد تربية وإعداد علمي وفكري وثقافي، ودار استقبال الوفود، ومجلس حوار ديني مع أهل الكتاب وغيرهم، ومركز تدريب اجتماعي ورياضي، ومركز إعلام وتوجيه عام، إلى آخر ما هنالك من مهمات وأدوار عامة للأفراد والأسر والدولة. فتميز بذلك عن دور العبادة لغيرهم.

ثالثاً : تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام:

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة فقال: ياجبريل وَدِدْتُ أنَّ الله صرفَ وجهي عن قبلة يهود، فقال جبريل: إنما أنا عبدٌ فادعُ ربَّكَ وَسَلْهُ، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء، فنزلت عليه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة/144] فوجَّه إلى الكعبة[1]. وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب 2 هـ.

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب، فلمّا ولّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك[2]. وكان يصلي إلى بيت المقدس استمالة لقلوبهم ربما يرغبون في دينه، ثم أنه ﷺ كره مواقفهم في أمر القبلة لما قالوا: لولا أنَّ ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا ولما استنَّ بسنتنا[3]، ولقد قال رب العزة تبارك وتعالى في سورة البقرة واصفاً هذه الحقائق بقوله:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ

(1) الطبقات الكبرى ج1ص/241.

(2) الطبقات الكبرى ج1ص/243.

(3) وفاء الوفا للسمهودي ج1ص/362.

هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: 142،143].

وبهذا نتبين حقيقة الانتقال إلى مرحلة جديدة في بناء الشخصية الاستقلالية للمسلمين وقد أقيمت الحجة على أهل الكتاب، وبهذا أيضاً جعل الله هذه الأمة أمة وسطاً لتشهد على الناس وتقدم لهم دين الله الذي جاء به رسول الله ﷺ الشهيد عليهم جميعاً.

رابعاً: الأذان – النداء إلى إقامة الصلاة:

اتسعت أحياء المدينة وكثر سكانها بعد هجرة رسول الله ﷺ إليها وتتابع المهاجرين، حتى صار الناس بحاجة إلى النداء يصلهم في منازلهم لحضور الصلاة وكان بلال بن رباح يصعد على أحد البيوت بجوار المسجد وينادي (الصلاة جامعة) فيجتمع الناس، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان وكان رسول الله ﷺ قد أهَمَّهُ أمر الأذان وأنهم ذكرو أشياء يجمعون الناس للصلاة، قال بعضهم البوق وقال بعضهم الناقوس، فبينما هم على ذلك إذ نام عبد الله بن زيد الخزرجي، فأري في النوم أنَّ رجلاً مرَّ وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس، قال: فقلت أتبيعُ هذا الناقوس؟ فقال: وماذا تريد به؟ فقلت: أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس، قال: فأنا أحدثك بخير لكم من ذلك، تقول:

(الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن محمداً رسول الله...أشهد أن محمداً رسول الله حَيَّ على الصلاة... حيَّ على الصلاة... حيَّ على الفلاح... حيَّ على الفلاح...

الله أكبر... الله أكبر... لاإله إلا الله). فأتى عبد الله بن زيد رسول الله ﷺ فأخبره، فقال له: قم مع بلال فألقِ عليه ما قيل لك وليؤذن بذلك ففعل.

قال ابن إسحاق:

(فقال رسول الله ﷺ إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك، فلما أذَّن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجرُّ رداءه وهو يقول: يانبيَّ الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد على ذلك) وقال: قد سبقك بذلك الوحي[4].

لقد تضمن الأذان نداءاً واضحاً صريحاً للتعريف بالإسلام، وتميز بذلك عن جميع وسائل الأمم والأديان، فكان ظاهرة أخرى متميزة لاستقلالية الإسلام، ولعل من المدهش حقاً أن يكون أمر الأذان وحوارات رسول الله ﷺ مع أصحابه بهذا الشكل، ليتنزل الوحي بثبوت رؤيا عبد الله بن زيد الخزرجي، كما يدهش حقاً ما قاله رسول الله ﷺ في شأن الوسائل التي عرضها الصحابة في أمر الأذان: (فقيل له انصب راية عند حضور الصلاة فإذا رآها الناس أعلمَ بعضهم بعضاً فلم يعجبه ذلك، فذكر له بوق يهود، فكرهه وقال: هو من أمر اليهود فذكر له الناقوس الذي يدعون به النصارى لصلاتهم،، فقال: هو من أمر النصارى فقالوا: لو رفعنا ناراً فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة فقال: ذلك للمجوس)[5].

وبذلك تميز أذان الصلاة للمسلمين عن جميع الناس، ليعطيهم هذا

(4) السيرة النبوية لابن هشام ج2ص/155.

(5) السيرة الحلبية ج2ص/100.

الاستقلال في شخصيتهم الإعلامية.

خامساً : فريضة صوم رمضان والزكاة:

وفي شعبان من السنة الثانية للهجرة نزل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾ [البقرة:183 ـ 185].

(نزل فرض شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجرة رسول الله ﷺ)[6]، (وقبل الفطر بيومين أمر بزكاة الفطر وبعد الفطر في شوال فرضت الزكاة)[7].

عن قيس بن سعد بن عبادة قال: (أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل

(6) الطبقات الكبرى ج1ص248.

(7) البداية والنهاية لابن كثير ج3ص/255.

أن تنزل الزكاة ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله)[8].

وحيثما ذكرت الصلاة في القرآن الكريم اقترنت بها الزكاة، وهما من أركان الإسلام، ومن الملاحظ أن في فريضتي الصوم والزكاة يضع الإسلام الفردَ والمجتمعَ في ميدان تهذيب النفس وتزكيتها وتنظيم العلائق الاجتماعية الروحية والمادية بين الناس من حيث النظام والدقة والتعاون والمؤاخاة، وعطف الأغنياء على الفقراء، وتوحيد مواقفهم وتقريب المستوى المادي والاجتماعي فيما بينهم، وهو عمل متمم لعقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

إن الصوم والزكاة ظاهرتان متممتان للظواهر الاستقلالية للمجتمع الإسلامي الجديد وهما في ذات الوقت مسرح عمل إسلامي تجتمع فيه القيم الروحية والمادية، وتتحقق فيه القدرة على مواجهة المصاعب الاقتصادية الفردية والجماعية، فإلى جانب الصبر الذي يتعلمه المسلم بالصوم يتعلم معاناة الفقراء والمساكين، كما يتعلم تشريع تنظيم العلاقات المادية للفرد والمجتمع، والاستعداد لمواجهة الطوارئ من نقص في الموارد الاقتصادية أو مواجهة لظروف الحرب والعدوان، وهي وسيلة لإقامة التضامن الاجتماعي، يتحد فيه الأغنياء والفقراء وتزول من بينهم الفوارق الطبقية، وتحل الرأفة والرحمة فيما بينهم محل الحسد والبغضاء والكراهية والاعتداء.

ملاحظة: إن مجموع هذه الظواهر الاستقلالية في الشخصية الإسلامية في المدينة تتوافق جوهرياً وعملياً مع الأسس والقواعد التي أقامها رسول الله ﷺ، وهي

(8) فتح الباري ج3ص207.

التي لابد منها لمواجهة التحديات القادمة، ومتابعة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وبذلك فقد بدأت مرحلة جديدة في المدينة النبويّة يسعى فيها الرسول ﷺ إلى إثبات الكيان الإسلامي وإلغاء العدوانية والغزو القبلي.

الفصل السادس

الإسلام دين الإنسانية

الإسلام دين الإنسانية

مقدمة:

منذ اليوم الأول للبعثة النبوية بدأ الإسلام يتوجه إلى البشر جميعاً بنداء شامل يوحد الأمم والشعوب وينهض بها، ويحررها من العنصرية والقبلية والظلم والاستبداد والجهل والفقر والمرض، وينير لها دروب السعادة والوحدة والعلم والتقدم والإخاء الإنساني.

وكانت البداية ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ سورة العلق، ثم الحض على العلم وتوحيد الخالق، والمساواة بين الناس جميعاً إلى إقامة التعارف والتعاون بينهم وقيام التنافس بينهم على نيل العزة والكرامة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات/13].

وكانت الدعوة النبوية لجميع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأوطانهم وطبائعهم، والدعوة إلى الله تشملهم جميعاً قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف/158].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ/28].

«وعن جابر بن عبد الله أنَّ النبي ﷺ قال: أُعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيَّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ، وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة وكان النبي يُبعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناسِ عامة»[1].

(1) رواه البخاري /828 ومسلم /521.

وكانت الدعوة النبوية منذ البداية تؤكد ذلك كله وتُعدُّ العدة لحمل الرسالة إلى العالم، إلى أن كان صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة، حيث آن الأوان لتوجيه الرسل إلى الملوك والأمراء يحملون إليهم دعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقد أعدَّهم الإعداد اللازم واختارهم بحسب كفاءاتهم ووجه بهم في المحرم سنة سبع.

رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء:

روى ابن سعد في الطبقات[2]:

أ. عمرو بن أمية الضمري:

«لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتباً. فقيل: يا رسول الله إن الملوك لا يقرؤون كتاباً إلاَّ مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة، فصَّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرّم سنة سبع، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثه إليهم، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشيّ وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن[3]، وفي الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة وبجهاز المسلمين وما يصلحهم، وحَمْلهُم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري.

(2) الطبقات الكبرى ج1 ص259 وما بعد.

(3) ذكرنا تفاصيل ذلك من قبل وفيه نصوص الرسائل وعودة المهاجرين.

ذ. دحية بن خليفة الكلبي:

«وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر، فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص، وقيصر يومئذ ماشٍ في نذر كان عليه: (إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافياً من قسطنطينيّة إلى إيلياء)، فقرأ الكتاب وأذَّن لعظماء الروم في دسكرةٍ له بحمص فقال: تتبعون هذا النبي العربي، قال: فحاصوا حيصة حُمُر الوحش وتناخروا ورفعوا الصليب. فلما رأى هرقل ذلك منهم يَئِسَ من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه، فسكَّنهم ثم قال: إنما قلتُ لكم ما قلتُ أختبركم لأنظر كيف صلابتُكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أُحب، فسجدوا له».

ر. عبد الله بن حذافة السهمي:

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي ــوهو أحد الستةــ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً. قال عبد الله: فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقُرئ عليه، ثم أخذه فمزَّقه، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: مزَّق الله مُلِكُهُ! وكتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: أن ابعث إليه من عندك رجلين جَلْدَين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتياني بِخَبره، فبعث باذان قهرمانه ورجلاً آخر وكتب معهما كتاباً، فقدما المدينة فدفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسَّم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما تُرعِدُ، وقال: ارْجعا عني يَوْمَكُما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريدُ، فجاءاهُ من الغد، فقال لهما: أبلغا صاحبكما أنَّ ربي قد قتل ربَّهُ كِسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مضت

منها؛ وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضت من جمادى الأولى سنة سبع، وأنَّ الله تبارك وتعالى سلَّط عليه ابنه شيروّيْه فقتله، فرجعا إلى باذان بذلك فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[4].

[illegible]. حاطب بن أبي بلتعة:

وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ــوهو أحد الستةــ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً، فأوصل إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه وقال له خيراً، وأخذ الكتاب فجعله في حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي ﷺ: قد علمت أنَّ نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوةً وبغلةً تركبها. ولم يزد على هذا ولم يُسلم. فقَبِلَ رسول الله ﷺ هديته وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وأختها سيرين، وبغلة بيضاء وهي دُلدُل.

وقال رسول الله ﷺ: (ضَنَّ الخبيث بمُلكه ولا بقاء لملكه). قال حاطب: كان لي مكرماً في الضيافة وقِلَّةِ اللُبث بِبابهِ، ما أقمت عنده إلاَّ خمسة أيام.

[illegible]. شجاع بن وهب الأسدي:

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي ــوهو أحد الستةــ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً. قال شجاع: فأتيت إليه وهو بغوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزالِ والإلطافِ[5] لقيصر.

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص 259. والأبناء: الذين وُلدوا في اليمن من أبناء الفرس.

(5) النزيل: الضيف، والنزل: الضيافة واللطف: البرُّ والتكرمة.

وهو جاءٍ من حمص إلى إيلياء، فأقمتُ على بابه يومين أو ثلاثة، فقلتُ لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه، وكان رومياً اسمه مُرِيُّ، يسألني عن رسول الله ﷺ فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فيرقُّ حتى يغلبهُ البكاء ويقول: إني قد قرأْتُ الإنجيل فأجدُ صفة هذا النبيَّ ﷺ بعَيْنِهِ فأنا أومن به وأُصدِّقه وأخاف من الحارث أن يقتُلَني، وكان يكرمني ويُحسنُ ضيافتي.

وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذنَ لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه ثم رمى به وقال: من ينتزع مني مُلكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئتُه، عَليَّ بالناس! فلم يزل يَفرضُ[6] حتى قام، وأمرَ بالخيول تُنْعلُ[7] ثم قال: أخْبر صاحبك ما ترى، وكتبَ إلى قيصر يُخْبِرُهُ خَبَري وما عزَمَ عليه، فكتب إليه قيصر: أنْ لا تَسِرْ إليه، وإلْهَ عنه وَوَافِني بإيلياء، فلمّا جاءَ جوابُ كتابه دعاني فقال: متى تُريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلتُ: غداً، فأمَرَ لي بمائة مثقالٍ ذَهبٍ، ووصلني مُرِيُّ، وأمر لي بنفقةٍ وكسوةٍ، وقال: أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام، فقدمْتُ على النبيّ ﷺ فأخبرتُهُ، فقال: «باد ملكه» وأقرأته من مُرَيّ السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق». ومات الحارث بن أبي شِمْر عام الفتح[8].

---

(6) يفرض: الفَرضُ العطيَّةُ المرسومة.

(7) تُنْعَلُ: إعداد الخيول للحرب بوضع قطع الحديد على حوافرها.

(8) الطبقات الكبرى ج1، ص261.

ذ. سليط بن عمرو العامري:

وبعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري ــوهو أحد الستةــ إلى هوذة بن علي الحنفي يدعوه إلى الإسلام وكتب معه كتاباً، فقدم عليه وأنزله وحَباهُ، وقرأ كتاب النبيّ ﷺ، وردَّ رداً دون رد وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخَطيبُهم، والعرب تَهابُ مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتَّبعُك، وأجاز سليط بن عمرو بجائزة، وكساه ثوباً من نسيج هجر، فقدم بذلك كله إلى النبي ﷺ، وأخبرهُ بما قال، وقرأ كتابه وقال: لَوْ سألني سَيابةً من الأرض ما فعلتُ، بادَ وباد ما في يَدَيْهِ، فلما انصرف من عام الفتح جاءَ هُ جبريلُ فأخبرهُ أنه قد مات[9].

كان الرسل الستة هؤلاء إلى الملوك الستة إيذاناً بدعوة الإسلام ورسالته إلى الناس كافة، وأعقبهم رسول الله ﷺ برسل ورسائل إلى الأمراء ومشايخ القبائل العربية، القريب منهم والبعيد، وعلى مدى الأيام والشهور اللاحقة، وكانت رسائله إليهم جميعا تحمل دعوتهم إلى الإسلام.

مشاهد وعبر ودروس مستفادة من رسل ورسائل رسول الله ﷺ:

أولاً: زمن البدء:

مضى من الزمن ما بين البعثة وإرسال الرسل والرسائل تسعة عشر عاماً كانت الدعوة الإسلامية فيها محصورة في الإطار الجغرافي المحدود في بلاد العرب، ما عدا الهجرتين إلى الحبشة، وكانتا بمثابة دورة تدريبية مستقبلية للمسلمين لمتابعة

(9) المرجع نفسه ص262.

الدعوة إلى الله في بلاد غير بلاد العرب ولأمم تختلف في مواطنها وألوانها ولغاتها ومصالحها وعقائدها ونظم الحكم فيها.

وكانت الدعوة في الإطار الجغرافي المحدود في بلاد العرب مرتكزةً على قاعدة المدينة النبوية ذات الإمكانات المحدودة بشرياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وبعد نضال دعوي استمر ست سنوات، امتلكت المدينة النبوية إمكانيات جغرافية وبشرية واقتصادية وسياسية وعسكرية مكّنت رسول الله ﷺ من إرسال الرسل إلى الأمم والملوك والأمراء في الإطار الجغرافي الأوسع والأكثر بُعداً عن المدينة، فَبِصلحِ الحديبية كان الاعتراف السياسي الكامل للزعامة العربية بالوجود الإسلامي للدولة النبوية الإسلامية وقدراتها البشرية والعسكرية والاقتصادية، وقد تحققت لها السيادة والاستقلالية المادية والمعنوية والصفة الدينية والتشريعية والوجود الحقيقي على أرض العرب فأَمْكَنَ لأي قبيلة من القبائل أن تقيم معها حلفاً وعقداً، لتشكل معاً قوة دفاع مشترك.

والمعنى الإجمالي لما تحقق مع صلح الحديبية: أنَّ رسول الله ﷺ قد امتلك القدرة على مخاطبة الملوك والأمراء ودعوة الأمم إلى دين الله وبيده قواعد ثابتة راسخة تستطيع تحمل مسؤولية ذلك.

ومن المهم جداً معرفة القدرات السياسية والدبلوماسية التي أعدها رسول الله ﷺ في هذا المجال، وظهرت على مسرح الأحداث من خلال اختيار الرسل ومضامين الرسائل وتحمل النتائج المترتبة عليها وحسن معالجتها. ولم يكن هذا الحدث العظيم في غير وقته، فقد اقتضت الحكمة النبوية أن يكون النداء الموجَّه إلى العالم في هذا الوقت بالذات، وهُوَ مَطلع السنة السابعة للهجرة النبوية.

ثانياً: الرسل:

١. إعدادهم:

يحتاج الرسل إلى معرفة طيبة بأحوال الأمم التي سيُبعثونَ إليهم ولغات تخاطبهم وطرازهم الدبلوماسي وعقائدهم التي يدينون بها وأحوالهم السياسية والمعاشية وأخلاقهم العامة وطرقهم التي يَصلون بواسطتها.

. تَعلُّم لغات الأقوام:

كان زيد بن ثابت الأنصاري النجاري يكتب للملوك ويُجيبُ بحضرة النبي ﷺ، وكان ترجمانُهُ بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية. تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن[10]. وكان ذلك بأوامر النبي ﷺ، ومنها: «كانت ترد على رسول الله ﷺ كتبُ السريانيّة فأمر زيد بن ثابت بتعلُّمها فتعلَّمها في بضعة عشر يوماً»[11] «وعن زيد بن ثابت أنَّ رسول الله ﷺ قال له: تَعَلَّم كتاب اليهود فإني ما آمن يهودياً على كتابة. فتعلمته في نصف شهر، حتى كتبت له إلى اليهود وأقرأتهُ إذا كتبوا إليه»[12].

وكان عمرو بن أمية الضمري يتكلم لغة الحبش وعبد الله بن حُذافة السهمي يتكلم لغة الفرس ودحية بن خليفة الكلبي يتكلم لغة الروم. وجميع الرسل كانوا يتكلمون لغة الأقوام الذين أرسلوا إليهم[13].

---

(10) التراتيب الإدارية ج1، ص202 عن العمدة للتلمساني.

(11) الاستيعاب ترجمة زيد بن ثابت

(12) تقدم تخريجه ص31.

(13) الطبقات الكبرى ج1، ص264.

. تحميل المسؤولية وتوضيح المهمة والهدف:

ذكر ابن سعد في الطبقات[14]: أنَّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه:

«وافوني بأجمعكم بالغداة، وكان إذا صلى الفجر حُبس في مُصلاّهُ قليلاً يُسبِّحُ ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عِدَّةً إلى عِدَّةٍ، وقال لهم: انصحوا لله في عباده، فإنَّهُ من اسْتُرْعِيَ شيئاً من أمور الناس ثُمَّ لم ينصح لهم حرَّمَ الله عليه الجنَّة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعَت رسل عيسى ابن مريم، فإنَّهم أَتَوْا القريب وتركوا البعيد. فأصبح رسل رسول الله ﷺ وكلُّ رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أُرسِلَ إليهم، فَذُكرَ ذلك للنبي ﷺ فقال: هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده».

ذ. فصاحة اللسان وحسن البيان وقوة الحجة ووفور العقل في الرسل:

«لما قدم دحية على قيصر قال: يا قيصر، أرسلني من هو خير منك والذي أرسلَهُ هو خيرٌ منه ومنك، فاسمع بِذُلٍّ ثم أجِبْ بنُصْحٍ، فإنك إن لم تذلَّل لم تفهم وإنْ لم تنصحْ لم تُنصِفْ. قال قيصر: هات. قال دحية: هل تعلم أَكانَ المسيح يُصلِّي؟ قال: نَعم، قال: فإني أدعوك إلى من كان المسيحُ يُصلي له، وأدعوك إلى من دَبَّرَ خلق السماوات والأرض، والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأُميّ الذي بشَّرَ به موسى وبشَّر به عيسى ابن مريم بعدَهُ. وعندك من ذلك إثارة من علم تكفي عن العيان وتشفي عن الخبر، فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة وإلاَّ ذهَبَتْ عنك الآخرة وشوركت في الدنيا، واعلم أن لك رَبّاً يقصم الجبابرة

(14) المجلد 1 ص264.

ويُغيّرُ النعم»[15].

«وقال حاطب بن أبي بلتعة للمقوقس ملك مصر: أنه قد كان رجل قبلك يزعم أنَّهُ الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعْتبر بغيرك ولا يَعتبرُ بك غيرك، قال: هات. قال: إنَّ لك ديناً لن تَدَعَهُ إلاَّ لما هو خيرٌ منه (وهو الإسلام إليه الكافي بهِ اللهُ فقدَ ما سواه). إنَّ هذا النبيَّ ﷺ، دعا الناس، فكان أَشدَّهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم منهُ النصَارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلاَّ كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إيّاك للقرآن إلاَّ كدُعاء أهلَ الكتاب إلى الإنجيل، وكل نبيّ أدرك قوماً فهم من أمته فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبيّ ولسنا ننهاك عن دين المسيحيَّةِ، ولكن نأمرك به»[16].

ذ. الهيئة واللياقة في الصورة والمظهر:

من رسل رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي[17] الذي كان ذو هيئة ولياقة تشابه هيئة ولياقة الروم، كان جميل الصورة حسن المظهر، عالماً بطبائع الروم، وكان بنو كلب يسكنون أطراف الشام، وكانت الشام تحت حكم الروم، يُجيد دحْية لغتهم ويَعْرِفُ عَاداتهم وأعرافهم، وكان عمرو بن أمية الضمري[18] شبيه الهيئة بالأحباش، وكانت أمهُ حبشية ويُجيد لغة الأحباش، وربما كان على معرفة مباشرة

(15) الروض الأنف للسهيلي ج2، ص355. التراتيب الإدارية للكتاني ج1، ص183.

(16) المرجع نفسه.

(17) راجع ترجمة دحية بن خليفة الكلبي في أسد الغابة لابن الأثير.

(18) راجع ترجمة عمرو بن أمية الضمري في أسد الغابة لابن الأثير.

بالنجاشي الذي أمضى زمناً من حياته عبداً لرجل من بني ضمرة يرعى له الغنم، وكان عبد الله بن حذافة يجيد اللغة الفارسية ويتردد كثيراً على بلاد فارس وبلاط كسرى، مما جعله ذا بصيرة بأحوال الفرس. وكان سليط بن عمرو يختلف إلى اليمامة[19] ويعلم أمورها وأحوالها.

ثالثاً: مضامين الرسائل النبويَّة:

تحمل الرسالة لغة معينة لخطاب الأمة تتناسب مع عقيدتها وأخْلاقها وأحوالها العامة، والملوك الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، على ديانات وعقائد وأحْوال مختلفة:

قيصر: يدين بالنصرانية ويحكم أمماً متعددة، منها بلاد الشام ومصر.

كسرى: يدين بالمجوسية ويحكم أمماً متعددة، منها اليمن والعراق.

المقوقس: يدين بالنصرانية ويحكم الأقباط في مصر.

النجاشي: يدين بالنصرانية ويحكم بلاد الحبشة وفيهم النصراني والوثني.

الحارث بن أبي شمر الغساني: يدين بالنصرانية ويخضع لسلطان الروم.

هوذة بن علي الحنفي: يدين بالنصرانية وله صلات وثيقة بالروم وهو ملك اليمامة، ومن رعاياه قوم يدينون بالمجوسية وعبادة النار.

ولو تابعنا رسائل رسول الله ﷺ إلى الأمراء الآخرين وأهل الكتاب لوجدنا لهذه الرسائل هدفاً واحداً ومضامين مختلفة من قوم لآخرين، فالهدف هو التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والمضامين تختلف بحسب عقائدهم.

(19) على هامش السيرة الحلبية لزيني دحلان ج3، ص65. راجع الروض الأنف ج4، ص68.

ز- كُتُبَهُ إلى أهل الكتاب:

كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتِك الله أجرك مرتين، فإنْ تولَّيتَ فعليك إثم الأَريسيِّين[20] و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾[21].

في هذا الكتاب خطاب يدعو إلى الوحدانية وشهادة الحق.

وفي كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي: تأكيدٌ على الوحدانية وشهادة بحقيقة عيسى عليه السلام وأنه كلمة ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة. ودعوة إلى الإسلام.

---

(20) الأريسيِّين: الفلاحين، ويذكر بعض العلماء أنَّ الأريسيين أتباع آريوس الذي يقول بنبوة عيسى عليه السلام ويُنْكِرُ ألوهيته.

(21) الوثائق السياسية لحميد الله ص109.

وهذا كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شَمِر

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدَّق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يَبْقى لك مُلكك(22).

وهذا كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط.

سلامٌ على من اتبع الهُدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلَم، يؤْتِك الله أجرك مرَّتين، فإنْ تَوليت فعليك إثمُ القبط ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾(23).

واضحٌ تماماً المضمون العام لرسائل رسول الله ﷺ إلى أهل الكتاب فيه بشكل خاص نص قرآني عن دعوتهم إلى كلمةٍ سواء لما بين الإسلام والمسيحية من ارتباط.

---

(22) المرجع السابق ص126.

(23) المرجع السابق ص135.

ﯖ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبْرَويز عَظيم فارس:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهُدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدُعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافةً، لأنذر من كان حيّاً ويحقَّ القول على الكافرين.

فأسلم تسلم، فإنْ أَبَيْتَ فإنَّ إثْمَ المجوسِ عليك(24).

يلاحظ من هذا الكتاب أنَّ فيه دعوة خاصة إلى الإسلام وليس فيها دعوة إلى كلمة سواء لأن المجوسية ليس بينها وبين الإسلام صلةً من دين أو مصدر سماوي.

ﯗ ـ كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى:

والمنذر عامل كسرى على البحرين، وتحت حكمه يتواجد المجوس والوثنيون واليهود، وهذا نص الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى

سلام على من اتبع الهدى، أما بعدُ: فإني أدعوك إلى الإسلام فأسلم تسلم يجعَلُ الله لك ما تحتَ يديك، واعْلم أنَّ ديني سيظهر إلى منتهى الخفِّ

(24) الوثائق السياسية ص140.

والحافر[25].

وكان رد المنذر حسناً، فأسلم وبعث إلى رسول الله ﷺ:

أما بعد يا رسول الله: فإني قد قرأتُ كتابك على أهل بحرين فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فأحدثْ في ذلك أمرك[26].

فبعث رسول الله ﷺ إلى المنذر الكتاب الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى

سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإني أذكرك الله عزَّ وجل، فإنه من ينصح فإنَّما ينصح لنفسه، وإنه من يُطع رُسُلي ويتَّبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقدْ نصحَ لي. وإنَّ رُسُلي قد أثنَوْا عليك خيراً، وإني قد شفعتُكَ في قومك، فاترْك للمسلمين ما أسلموا عليه، عفوتُ عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنَّك مهما تصلحَ فلن نعْزلك عن عملك. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية[27].

(25) المرجع نفسه ص145.
(26) المرجع نفسه ص148.
(27) الوثائق السياسية ص146.

رابعاً: أعراف دبلوماسية نبويّة:

نستفيد من رسائل وكتب النبي ﷺ الركائز الدبلوماسية الآتية:

1- الاحترام الشديد يُبْديه رسول الله ﷺ لمن يخاطبهُ فيُجلُّهُ ويُعظِّمهُ احتراماً لمكانته في قومه فيقول:

إلى عظيم الروم . إلى عظيم الفرس . إلى عظيم القبط.

2- وضوح النص وعدم وجود لبس أو غموض فيه.

3- الحرص على فتح الحوار مع المرسل إليه وتشجيعه على الإيمان.

4- تحميله المسؤولية عن رعيَّته.

5- احترام مكانته في نفسه وحرصه على ملكيته فلا يُنازع عليها إذا آمن بالله وأسلم.

6- تجرد رسول الله ﷺ عن كل مظاهر الملك والعظمة في رسائله وتعريفه بنفسه أنه «عبد الله ورسوله» وفي ذلك دلالة واضحة على أن العبودية لله وحده.

7- انسجام نصوص الكتب والرسائل مع الهدف المطلوب ووحدتها الموضوعية، فهي مُجرَّدَةٌ عن معالجة مشكلات شخصيَّة أو خلافات سياسية. وموضوعها الهادف «الوحدانية لله سبحانه وتعالى».

8- اعْتِمادُ طريقة الملوك والأمراء في أسلوب الرسالة، من ختم وحافظة لتثبيت صحة المصدر وضمانة سلامة الرسالة.

كانت المراسلات على مستوى مهم جداً في العلاقات المحلية والدولية لم تقف عند حد الرسائل الستة بل تجاوزتها إلى تبادل مع الملوك والأمراء وغيرهم ابتداء من شيوخ القبائل إلى أمراء البلاد في شتى بقاع الجزيرة العربية والبلاد المجاورة. فكانت هذه المراسلات مستمرة في مدة حياة رسول الله ﷺ، وتابعها الخلفاء من

بعده، لتكون بالتالي لغةً راقية للتخاطب فيما بينهم يتجلّى فيها الحوار والعقل والفكر مع حق الاختيار الذي شرعه الله للناس.

خامساً: نتائج الرسائل وآثارها المباشرة:

اتضح لنا من خلال الأحداث السابقة اختلاف مواقف الملوك والأمراء، فكان منهم من أسلم، ومنهم من ردَّ ردّاً حسناً ومنهم من ردَّ ردّاً معادياً ومنهم من مزّق الرسالة ومنهم من قتل الرسول. ومثلما كان انتشار الإسلام بالدعوة، نَراهُ قد استلزم في بعض الحالات تجهيز الجيش وخوض الحرب رداً على العدوان.

. لقاء أبي سفيان قيصر الروم «هرقل» بإيلياء القدس:

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سُفيان وكُفَّارُ قريش «صلح الحديبية» فأَتوْهُ وهم بإيلياء فدعاهمُ في مجلسه وحولَهُ عُظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتَرجمانه فقال: أَيّكُمْ أقرَبُ نسباً بهذا الرجل الذي يزعُم أنَّهُ نبيٌّ؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أَدْنوهُ مني وقَرِّبوا أصحابه فاجعلُوهم عند ظهرِهِ، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإنْ كذَبَني فكذّبوه، فوالله لولا الحياء من أنْ يأثِروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أوَّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبلَهُ؟ قلت: لا، قال: فهلْ كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضُعَفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: هل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل

كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلتُ: لا، قال: فهل يَغْدرُ؟ قلت: لا، ونحن منه في مُدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكنِّي كلمة أُدْخِلُ فيها شيئاً (أي أنتقصه بها) غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلتُ: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجالٌ ينالُ منا وننالُ منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال للترجمان: قل له:

سألْتُكَ عن نسبه فذكرت أَنَّهُ فيكم ذو نسب فكذلك تُبعَثُ الرسل في نسب قومها، وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لَقُلتُ رجلٌ يأْتسي بقولٍ قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من مَلِكٍ فذكرت أن لا، قلتُ: فلو كان من آبائه من ملك قُلتُ رجل يَطلب مُلك أبيه، وسألتك هل كنتم تَتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرفُ أَنَّهُ لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أنَّ ضُعفاءَ هُم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنَّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمَّ، وسألتك أَيرتَدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخلُ فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حتى تُخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدرُ، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقولُ حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين وقد كنت أعلم أنَّه خارجٌ لم أكن أظنُّه أنه منكم، **فلو أني**

أعلم أني أخلص إليه لتجَشَّمْت[28] لقاءهُ، ولو كنت عنده لَغَسلت عن قدمه[29].

في هذا الحدث ما يدل على بعض آثار رسالة رسول الله ﷺ إلى قيصر، وفيه تحقيق سياسي وعقائدي دقيق تحرّى فيه هرقل استجلاء الحقيقة والتثبت من بعثة رسول الله ﷺ ومقارنته مع ما يعلمه من علامات النبوّة الواردة في الكتب القديمة، والمبشرات برسول الله ﷺ، وبنتيجة هذا اللقاء بهرقل قال أبو سفيان: فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

(28) تجشَّمتُ: تكلفت من المشقة.

(29) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب 6، حديث 7، ومسلم حديث 1773.

الفصل السابع

فتح مكة

فتح مكة

ـ وصيّة رسول الله ﷺ للجيش يوم فتح مكة:

قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة يوصي المسلمين: «لا تُجهِزُنَّ على جريح، ولا يُتبعَنَّ مُدْبرٌ، ولا يُقتلَنَّ أَسيرٌ ومن أغلق بابَه فهو آمن»[1].

. زمن فتح مكة:

كان فتح مكة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة[2].

. صلاة رسول الله ﷺ الضحى في يوم فتح مكة:

وفي ضحى يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ فاطمة فسكبت له غُسلاً فاغتسل ثم صلى ثمان ركعات في ثوب واحد مُلتحفاً به، سُبحة الضحى[3].

. التوجّهُ إلى بيت الله الحرام:

ثم مكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من النهار ثم دعا براحلته القصواء، فأُدْنيَتْ إلى قُبَّته، ودعا للبس السلاح، والمغفر على رأسه، وقد صفَّ له الناس، فركب براحلته والخيل تَمْعُجُ بين الخندمة إلى الحَجون، ولما انتهى إلى الكعبة فرآها، ومعه المسلمون تقدَّم على راحلته فاستلم الركن بِمِحْجنه، وكَبَّر فكَبَّرَ المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجَّت مكة تكبيراً حتى جعل رسول الله ﷺ يُشير

(1) فتوح البلدان للبلاذري ص53.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج2، ص137. والسيرة النبوية لابن هشام ج4، ص 80. وتاريخ الطبري ج3، / 69.

(3) أخرجه مسلم حديث 336.

إليهم: اسكتوا! والمشركون فوق الجبال ينظرون، ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت على راحلته، آخذٌ بزمامها محمد بن مسلمة.

. أصنام المشركين تسقط وتتحطم:

وكان حول الكعبة ثلاثمئة صنم وستون صنماً مرصَّعةً بالرصاص، وكان هبل أعظمها وهو وُجاهَ الكعبة على بابها، وإِسافُ ونائلةُ حيث ينحرون ويذبحون الذبائح، فجعل رسول الله ﷺ كلما مَرَّ بصنم منها يُشير بقضيب في يده ويقول: ﴿ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ [الإسراء/81]. فيقع الصنم لوجهه ما يزيد رسول الله ﷺ أن يشير بالقضيب إلى الصنم فيقع لوجهه. فطاف سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجنه في كل طواف، فلما فرغ من سبعةٍ نزل عن راحلته، وجاء معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرج راحلته، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى المقام ـ هو يومئذ لاصقٌ بالكعبة ـ والدرع عليه والمغفر، وعمامته بين كتفيه، فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم، فاطَّلَعَ فيها، وقال: لولا أن يُغلب بنو عبد المطلب لنزعتُ منها دلواً، فنزع له العباس بن عبد المطلب ـ وكانت إليه السقاية في الحرم ـ دلواً منه. وأمر بهُبَل فَكُسِرَ وهو واقف عليه[4].

(4) المغازي للواقدي ص831.

. دخول الكعبة:

بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من البطحاء ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يتقدم فيفتح البيت فلا يدع فيها صورة إلاَّ محاها، ولا تمثالاً، إلاَّ صورة إبراهيم. فلما دخل عمر الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخاً كبيراً يستقسم بالأزلام. (ويقال: أمره أن لا يدع صورة إلا محاها). فترك عمر صورة إبراهيم فلمَّا دخل رسول الله ﷺ رأى صورة إبراهيم عليه السلام، فقال: يا عمر ألَمْ آمرك ألاَّ تدع فيها صورة إلا محوتها؟ فقال عمر: كانت صورة إبراهيم. قال: فامحها. وأمر رسول الله ﷺ بالكعبة فغُلِّقت عليه، ومعه أسامة بن زيد وبلال بن رباح وعثمان بن طلحة، فمكث فيها ما شاء الله، ثم صلى ركعتين ثم خرج والمفتاح في يده، وخالد بن الوليد عند باب الكعبة يذب الناس عن الباب حتى خرج رسول الله ﷺ[5].

. خطبة رسول الله ﷺ في الحرم:

ثم وقف رسول الله ﷺ عند الباب والناس جلوس حول الكعبة فقال: (الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده! ماذا تقولون وماذا تظنون؟ قالوا: نقولُ خيراً ونظنُّ خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت! فقال رسول الله ﷺ:

فإني أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف/92].

ألا إنَّ كلّ رباً في الجاهلية، أوْ دمٍ أو مالٍ، أو مأثرةٍ، فهو تحت قدميَّ هاتين

(5) المرجع نفسه ص 834 و835.

إلاَّ سِدانةُ البيت وسقايةُ الحاج، ألاَ وفي قتيل العَصا والسوط، الخطأ شبه العمد، الديَّةُ مغلَّظةً مئة ناقة، منها أربعون في بُطونها أولادها. إنَّ الله قد أذْهَبَ نخوةَ الجاهلية وتكبُّرها بآبائها كلكم من آدم وآدم من تراب، وأكرمكم عند الله أتقاكم، ألا إنَّ الله حَرَّمَ مكَّةَ يوم خلق السموات والأرض، فهي حرامٌ بحُرمةِ الله، لم تحِلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ كائنٍ بعدي، ولم تحلَّ لي إلاَّ ساعةً من النهار . يَقصُرها رسول الله ﷺ بيده هكذا . لا يُنفرُ صَيْدُها ولا يُعْضدُ[6] عضاهُها، ولا تحلُّ لقطتُها إلاَّ لمنْشدٍ، ولا يُختلى خلاها[7]. فقال العبّاس وكان شيخاً مُجرِّباً: إلاَّ الإذخِرَ[8] يا رسول الله فإنَّه لا بُدَّ منه، إنَّه للقبورِ وطُهورِ البيوت. فسكت رسول الله ﷺ ساعةً، ثم قال: إلاَّ الإذخِرَ فإنَّهُ حلال. ولا وصيَّةَ لوارث، وإنَّ الولد للفِراش وللعاهر الحَجَر[9]، ولا يحل لإمرأة تُعطي من مالها إلاَّ بإِذْنِ زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون أخوةٌ، والمسلمونَ يدٌ واحدة على من سِواهم، تتكافأُ دماؤهم، يردُّ عليهم أقْصاهم، ويَعقِدُ عليهم أدناهمُ، ومُشِدُّهم على مُضعِفهم[10] ومَيْسَرَتهم على قاعدهم، ولا يُقتل مُسْلِمٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده، ولا يتوارث أهل مِلَّتيْنِ مُخْتلفتين، ولا جلب ولا جنب[11] ولا تؤخذ صدقاتُ المسلمين إلاَّ في بيوتهم وبأفنيتهم، ولا تُنكح المرأة على عمتها وخالتها والبيّنة على من ادعى واليمين على

---

(6) يعضدُ: يُقطع.
(7) الخلا: النبات الرطب الدقيق.
(8) الإذخر: حشيشٌ طيب الريح.
(9) الحجر: أي الخيبة.
(10) المشد: الذي دوابُّه شديدة قوية.
(11) الجلب: تحصيل مال زكاة أو صدقة في غير محلها. والجنب: أن يجنب رب المال بماله كي لا يدفع عنه الزكاة.

من أنكر، ولا تُسافر امرأة مسيرة ثلاث إلاَّ مع ذي مَحْرَم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، وأنهاكم عن صيام يومين، يوم الأضحى، ويوم الفِطر، وعن لَبْسَتيْنِ! لا يَحْتبِ أحدُكم في ثوبٍ واحدٍ يُفضي بعوْرته إلى السماء، ولا يشتمل الصمَّاء، ولا إخالكم إلا وقد عرفتموها). = هي الثوب لا أكمام له.

ثم نزل ومعه المفتاح فتنحى ناحية المسجد، وكان رسول الله ﷺ قد قبض السِقاية من العباس وقبض المفتاح من عثمان، فلما جلس قال: ادعُوا إليَّ عثمان! فدُعي له عثمان بن أبي طلحة، فقال له: خذوها يا بني أبي طلحة تالدةً خالدةً. لا ينزعها إلاَّ ظالمٌ. يا عثمان، إنَّ الله استأمنكم على بيته، فكلوا بالمعروف[12]. ثم قال: (اليوم يوم بر ووفاء). ودفع رسول الله ﷺ السقاية إلى العباس بن عبد المطلب.

وفي رواية ابن إسحاق أنَّ رسول الله ﷺ قال: (يا معشر قريش، ما تَرَوْنَ أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[13].

. قريش ومكة يوم الفتح العظيم:

كان يوم فتح مكة غرَّة في جبين الدهر، عَزَّت فيه قريش وعَظُمَت مكة إلى يوم القيامة، فكان من أعظم المشاهد ما يلي:

(12) المغازي للواقدي ص835 وما بعد.

(13) السيرة النبوية لابن هشام ج4، ص55.

. لم يتعرض أحد من قريش لسبيٍ أو أسرٍ أو إذلال من ذكر أو أنثى.

. ولم يَغنَمِ المسلمون من مكة شيئاً، ولم يُهدم منزل أو دار.

. رسول الله ﷺ جعل أهل مكة طلقاءً أحراراً لا حساب ولا عتاب ولا جزاء.

. كان رسول الله ﷺ أهدرَ دم ستة من الرجال وأربع نساء، فلم يقتل منهم سوى[14]:

عبد الله بن خطل: لأنه سبق وقتل مسلماً وارتد عن الإسلام.

مِقْيَس بن صُبابة: لأنه سبق وقتل رجلاً مسلماً وارتد عن الإسلام.

الحويرث بن نُقَيذ: وكان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة ونخس الدابة التي تحمل بنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، فرمى بهما أرضاً وهما في الطريق إلى المدينة.

وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وأسلمت الأخرى وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ.

وعفا عن عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأسلمت سارة مولاة بعض بني عبد المطلب، فعفا عنها رسول الله ﷺ، وأسلم عكرمة بأمان حصلت عليه امرأته أم حكيم بنت الحارث، وأسلم الباقون فأمَّنهم رسول الله ﷺ.

. وحضر رجال مكة خطاب رسول الله ﷺ، خاف بعضهم على نفسه فهربوا من مكة، أمثال حويطب بن عبد العُزى وهبيرة بن أبي وهب ـ زوج أم هانئ بنت أبي طالب ـ وابن الزبعري فأسلموا جميعاً وفرح رسول الله ﷺ بإسلامهم وقدم إليه صفوان بن أمية فشهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد بالنبوة وطلب مهلة

(14) السيرة النبوية لابن هشام ج4، ص52 وما بعد.

شهرين فقال له النبي ﷺ لك أربعة أشهر وأسلم بعد ذلك وأسلمت نساء قريش وبايعْنَ رسول الله ﷺ: أسلمت هند بنت عتبة وأم حكيم بنت الحارث امرأة صفوان البَغوم بنت المعَذَّل، وفاطمة بنت الوليد وهند بنت منبِّه بن الحجاج، ولم تمض أيام حتى دخل كل الناس في مكة في الإسلام. وخرج معه منهم ألفاً رجل إلى حُنين(15).

وكان ممن أسلم من الرجال: سهيل بن عمرو بواسطة ابنه عبد الله وأسلم هبار بن الأسود ووحشي بن حرب.

(15) المغازي للواقدي: مقتطفات من صفحات. 846 وما بعد.

الفصل الثامن

انتشار الإسلام ووحدة العرب

انتشار الإسلام ووحدة العرب

المقدمة:

مَرَّت الدعوة الإسلامية إلى العرب بسبعة مراحل خلال العهدين المكي والمدني، كان رسُول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فيها، وهي على التوالي:

أولاً: اللقاءات مع القبائل العربية في منازلهم أيام الحج والعمرة وهي أيام الأشهر الحرم، يدعو العرب إلى: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) فلم يَلق منهم إلا الصدَّ والتكذيب والاستهزاء والعدوان، يتقدمهم في ذلك عمه أبو لهب وسفهاء قريش المشركين.

ثانياً: ثم يدعوهم لإجارته لتبليغ رسالة ربه، ولم يلق منهم إلاَّ الرفض والتكذيب.

ثالثاً: هاجر إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام أو إلى إعانته لتبليغ رسالة ربه، فكان منهم الإيذاء والاستهزاء والشتم والعدوان.

رابعاً: ثم دخل الأنصار في الإسلام، وكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية وفتحت الأبواب أمام بناء أول قاعدة للإسلام على أرض المدينة ثم كانت الهجرة إليها وبدأ العمل النبوي في تأسيس الإسلام وإقامة بنيانه والانطلاق به إلى الأمام، فكانت مؤامرات قريش العدوانية والحرب المستمرة تشنها زعامة المشركين في مكة منفردة حيناً ومتحالفة مع القبائل الأخرى وقواها المختلفة لمواجهة الإسلام.

خامساً: ثم كانت الهدنة ووقف القتال بين المسلمين وقريش وقام أول

تحالف من نوعه في بلاد العرب يضم المسلمين وخزاعة في وجه قريش وبني بكر، وفتحت بذلك أبواب الدعوة أمام الإسلام، فكانت رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء في مطلع السنة السابعة للهجرة.

سادساً: فتح مكة. وهو الحدث الأكثر أهمية حيث سقطت قلعة الشرك والوثنية، وانهار الحاجز الذي كان العرب يقفون خلفه خوفاً من زعامة قريش وبدأت الدعوة الإسلامية تنتشر كانتشار النور وسط الظلام.

سابعاً: وامتد الإسلام إلى كل قبيلة بأفرادها وزعاماتها، بعمل نبوي دقيق مدروس ومنظم. ومن هنا بدأت وحدة الأمة العربية.

أسس العمل التوحيدي:

الأساس الأول: تبليغ الدعوة إلى القبائل، وذلك بالرسل والرسائل والكتب الموجهة إليهم من رسول الله ﷺ.

الأساس الثاني: قدوم الوفود إلى المدينة للقاء النبي ﷺ وتلقي الإسلام والقرآن والبيعة لرسول الله ﷺ.

الأساس الثالث: تنظيم العلاقات الاقتصادية والإدارية وتوزيع المهمات العامة والخاصة، من خلال تعيين الولاة والأمراء وجباة الزكاة والصدقات ورسم حدود المراعي وتنظيم العلاقات بين القبائل وكتابة العهود والمواثيق وإرسال المعلمين والدعاة لتعليم القرآن والشريعة والعمل بها.

الأساس الأول: الرسل والرسائل والكتب

آ . وصية رسول الله ﷺ للرُسل الذين كلفهم بحمل رسائله إلى الناس:

(قال رسول الله ﷺ لأصحابه: وافوني بأجمعكم بالغداة . وكان ﷺ إذا طلع الفجر حُبس في مصلاه قليلاً يسبح ويدعو . ثم التفت إليهم فبعث عدَّةً إلى عِدَّةٍ وقال لهم:

انصحوا لله في عباده، فإنه من استُرعيَ شيئاً من أمور الناس ثم لم يَنْصَحْ لهم حرَّم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنع رُسُلُ عيسى ابن مريم، فإنهم أتوْا القريب وتركوا البعيد).

وأصبح الرسل وكل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أُرسل إليهم، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده[1].

ب . الرسل والجهات التي أرسلوا إليها:

. عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابْنَي الجُلندى في ذي القعدة سنة 8 هـ.

. العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى في البحرين في ذي القعدة سنة 8 هـ.

. دحية بن خليفة الكلبي إلى ضغاطر الأسقف.

. معاذ بن جبل ومالك بن مرارة إلى عدة من أهل اليمن.

. ظبيان بن مرثد السدوسي إلى بكر بن وائل.

. عياش بن أبي ربيعة المخزومي إلى عبد القيس من حِمْير.

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص264.

. خالد بن الوليد إلى أكيدر صاحب دومة الجندل[2].

هؤلاء ممن بعث بهم رسول الله ﷺ يحملون رسائله إلى بعض العرب وهناك رسائل أخرى كثيرة. ومن دراسة الرسائل والكتب نتبين المضامين التالية:

رسائل تحمل الدعوة إلى الدخول في الإسلام وحقوق التملك، وفرائض الإسلام، وتنظيم العلاقات، هذه الرسائل تختلف باختلاف الزعامة والفئات الدينية التابعة لها بما يتوافق والشريعة الإسلامية.

أولاً: الرسائل الموجهة إلى أهل الكتاب

. كتب رسول الله ﷺ، إلى ضغاطر الأسقف:

سلام على من آمن. أمَّا على أثر ذلك فإنَّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى[3].

. وكتب رسول الله ﷺ إلى يُحنَّة بن رُوبة وسروات أهل أيْلة:

سلم أنتم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هوَ فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلم أو أعطِ الجزيَةَ وأطع الله ورسولَهُ ورُسُلَ رسوله وأكرمهم وأكسُهُم كسوةً حسنةً غير كسوةِ الغُزّاءِ. واكسُ زيداً كسوةً حسنةً فَمَهْما رَضيتْ

(2) المرجع السابق ج1 ص262 وما بعد.

(3) المرجع السابق ج1 ص276.

رُسُلي فإني قد رضيتُ وقد عُلِمَ الجزية، فإن أردتم أن يأمن البَرُّ والبحْرُ فأطع الله ورسوله ويُمنعُ عنكم كلُّ حقٍّ كان للعرب والعجم إلاَّ حقَّ الله وحقَّ رسوله وإنَّك إنْ رَدَدْتُهم لا آخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير، فإني رسول الله بالحقِّ أومن بالله وكُتُبه ورسله وبالمسيح ابن مريم إنَّهُ كلمةُ الله وإني أومن به أنَّهُ رسول الله، وَأتِ قبل أن يمسَّكم الشرّ فإني قد أَوْصَيْتُ رُسُلي بكُمْ، وأعْطِ حَرْمَلَةَ ثلاثةَ أوْسُقٍ شعيراً وإنَّ حرملةَ شفع لكم، وإني لولا الله وذلك لم أُراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إنْ أطعتُم رُسُلي فإنَّ الله لكم جارٌ ومحمدٌ ومن يكون منه، وإنَّ رُسُلي شرحبيل وأُبيّ وحرملة وحُرَيْث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضَوْهُ عليك فقد رضَيْتُهُ وإن لكم ذمَّة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتم، وجهّزوا أهل مقنا إلى أرضكم[4].

- وكتب رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غاديا أنَّ لهم الذمَّة وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء، الليل مدّ والنهار شدّ - وكتب خالد بن سعيد

(قالوا: وهم قوم من يهود، وقوله مد، يقول: يمدُّه الليل ويشدُّه النهار لا ينقصه شيء)[5]. كذلك كتب إلى بني عُريض (قوم من اليهود).

- وكتب رسول الله ﷺ لأهل نجران عهد الذمة حدَّد الجزية والأمان وشهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف النصري وآخرين وذلك

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص 277 / والوثائق لحميد الله ص 116.
(5) المرجع السابق ص278.

بعد العودة من حصار الطائف[6].

. وكتب كتاباً آخر ليُحنّة بن روبة أعطاهم فيه الأمان في البر والبحر ونظم العلاقة بينهم وبين المسلمين[7].

ثانياً: الرسائل الموجهة إلى زعماء القبائل

. بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمانٍ إلى جيفر وعبد ابني الجُلندى، وهما من الأزد يدعوهما إلى الإسلام والملك منهما جيفر، فأجاب جيفر إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً وصدقا بالنبي ﷺ، وخلّيا بين عمرو وبينَ الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا له عوناً على من خالفه، فأخذ الصدقة من أغنيائهم وردّها في فقرائهم[8].

. وبعث رسول الله ﷺ، منصرفة من الجعرانة العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي العبدي وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وكتب إليه كتاباً، فكتب إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وتصديقه، وفيه: «وإني قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحْدِثْ إليَّ في ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ: إنك مهما تُصلح فلن نعزلك عنْ عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعلية الجزية.

---

(6) المرجع السابق ص287.

(7) المرجع السابق ص289 وهو نموذج لعهود الذمة مع أهل الكتاب.

(8) المرجع السابق ص262.

وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فإن أَبَوْا أُخِذَتْ منهم الجزية، وبأن لا تُنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم، وكان رسول الله ﷺ بعث أبا هريرة مع العلاء بن الحضرمي وأوصاهُ به خيراً، وكتب للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال، فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم[9].

- وكتب رسول الله ﷺ إلى عدة من أهل اليمن وسماهم، منهم: الحارث بن عبد كُلال، وشُريح بن عبد كُلال، ونُعَيم بن عبد كلال، ونعمان قيل[10] ذي يَزن، ومعافر وهمدان، وزُرعة ذي رُعَين، وكان قد أسلم من أول حمير وأمرهم أن يجمعوا الصدقة والجزية فيدفعوها إلى معاذ بن جبل ومالك بن مُرارة، وكتب إلى بني معاوية من كِندة وإلى بني عمرو من حِمير.
- وكتب إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله ﷺ[11].
- وبعث رسول الله ﷺ جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الكُلاع بن ناكور وإلى ذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وأسلمت ضُرَيْبَةُ بنت أبرهة بن الصباح امرأة ذي الكُلاع، وكتب لمن أسلم من حَدَس من لخم وأقام الصَلاة وآتى الزكاة، وأعطى حظ الله وحظَّ رسوله، وفارق المشركين، فإنه آمن بذمة الله وذمة رسوله محمد، ومن رجع عن دينه فإنَّ ذمة الله وذمة محمد رسوله منه بريئة، ومن شهد له

(9) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص263.
(10) قيل: صاحب أو أمير، وهي تسمية لأمراء مناطق اليمن ومثلها ذو، وأذواء.
(11) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص264.

مسلمٌ بإسلامه فإنَّهُ آمن بذمة محمد وذمة المسلمين[12].

. وكتب رسول الله ﷺ لخالد بن ضماد الأزدي: أن له ما أسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله لا يشرك به شيئاً ويشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله. وعلى أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم شهر رمضان، ويحج البيت، ولا يؤوي مُحدثاً، ولا يرتاب وعلى أن ينصح لله ولرسوله، وعلى أن يُحبَّ أحباء الله، ويُبغض أعداء الله، وعلى محمد النبي أن يمنعه مما يمنع منه نفسه وماله وأهله. وأن لخالد الأزدي ذمَّة الله وذمَّة محمد النبي إنْ وفّى بهذا. وكتب أُبيّ[13].

. وكتب لعمرو بن حزم عهداً يعلمه فيه شرائع الإسلام وفرائضه وحدوده وبعثه إلى اليمن.

. وكتب لبني معاوية بن جَرْوَل الطائيين لمن أسلم منهم، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع الله ورسوله وأعطى من الغنائم خمس الله وسهم النبي ﷺ، وفارق المشركين، وأشهد على اسلامه، أنَّهُ آمن بأمان الله ورسوله، وأنَّ لهم ما أسلموا عليه والغَنَمُ مبيتةً[14].

. وكتب لعامر بن الأسود بن عامر بن حُوَين الطائي أنَّ له ولقومه طيء ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وفارقوا المشركين.

. وكتب لبني حوين الطائيين مثل ما كتب لعامر بن الأسود.

. وكتب لبني معن الطائيين مثل ما كتب لعامر بن الأسود.

(12) المرجع السابق ج1 ص266.
(13) المرجع السابق ج1 ص267.
(14) المرجع السابق ج1 ص269. (مبيتة: حيث باتت).

- وكتب لجنادة الأزدي وقومه ومن تبعه مثل ما كتب لعامر بن الأسود[15].
- وكتب رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى بني أسد. سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فلا تقرُبنَّ مياه طيء وأرضهم فإنه لا تحل لكم مياههم ولا يلجْنَ أرضهم إلاَّ من أَوْلَجوا وذمة محمد بريئة ممن عصاه، وليُقم قُضاعيُّ بن عمرو ـ وكان عاملاً عليهم.
- وكتب إلى سعد هُذيم من قُضاعه وإلى جُزام كتاباً واحداً يعلمهم فيه فرائض الصدقة وأمرهم أن يدفعوا الصدقة والخمس إلى رسوليه أُبيّ وعنبسة أو من أرسلاه[16].
- وكتب لبني زُرعة وبني الربعة من جهينة أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وأنَّ لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلاَّ في الدين والأهل، ولأهل باديتهم مَنْ بَرَّ منهم وأتّقى ما لحاضرتهم والله المستعان.
- وكتب لنبي جُعيل من بَليّ، أنهم رهط من قريش، ثم من بني عبد مناف، لهم مثل الذي لهم وعليهم مثل الذي عليهم، وأنهم لا يُحشرون ولا يُعشرون، وأن لهم ما أسلموا عليه من أموالهم، وإنَّ لهم سعاية نصر وسعد بن بكر وثُمالة وهذيل، وبايع رسولَ الله ﷺ على ذلك عاصمُ بن أبي صيفي وعمرو بن أبي صيفي والأعجم بن سفيان, وعليّ بن سعد وشهد على ذلك: العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو سفيان بن حرب ـ وإنَّما جعل الشهود من بني عبد مناف لأنهم حلفاء بني عبد مناف، ويعني لا

---

(15) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص269.
(16) المرجع السابق ج1، ص270.

يُحشرون من ماء إلى ماء في الصدقة، ولا يعشرون يقول في السنة إلاَّ مرة واحدة، وإن لهم سعاية: يعني الصدقة[17].

- وكتب لقبائل شتى مثل ذلك.

ثالثاً: إلى جُمَّاع[18] كانوا بجبل تهامة

وكتب رسول الله ﷺ لجُمَّاع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارّة من كنانة ومُزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد. فلما ظهر رسول الله ﷺ، وفد منهم وفد على النبي ﷺ فكتب لهم رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتابٌ من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء إنهم إنْ آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبْدهم حرٌّ ومولاهم محمد ومن كان منهم من قبيلةٍ لم يُرَدَّ إليها وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم، وما كان لهم من دَيْنٍ في الناس رُدَّ إليهم ولا ظُلْمَ عليهم ولا عُدوان، وإنَّ لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد والسلام عليكم، وكتب أُبَيّ بن كعب[19].

رابعاً: كتب التمليك والإقطاع والتنظيم

- كتب رسول الله ﷺ لنعيم بن أوس أخي تميم الداري أنَّ له حبرى وعَيْنون بالشام قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها. ولعِقبة من بعده، لا يحاقه فيها أحد ولا يلجه عليهم بظلم، ومن ظلمهم أو أخذ منهم شيئاً فإنَّ

(17) المرجع السابق ج1 ص 270 . 271.
(18) جُمَّاع: قُطاع طرق وخارجين عن ولاء قبائلهم.
(19) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص278.

عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وكتب عليّ[20].

. وكتب للحصين بن أوس الأسلمي أنه أعطاه الفَرعين وذات أعشاب لا يحاقه فيها أحد. وكتب عليّ.

. وكتب لبني قرة بن عبدالله، وكتب لبني الضباب من بني الحارث بن كعب، وكتب ليزيد بن الطفيل الحارثي، ولبني قنان بن ثعلبة من بني الحارث، وكتب لعبد يغوث بن وعله ولبني زياد بن الحارث الحارثيين، وكتب ليزيد بن المِحَجَّل الحارثي وكتب لقيس بن الحصين، لكل منهم كتب له في أرضه وعلى أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويفارق المشركين ويُشهدوا على إسلامهم. ونظم لهم أمنهم وأمانهم، كذلك كتب عليه الصلاة والسلام لقبائل شتى كتباً حدد لهم فيها حدود مراعيهم ومياههم وتعاملهم مع رسل رسول الله ﷺ والفرائض المتوجبة عليهم، ومنهم بُدَيْل وبُسر وسروات بني عمرو وغيرهم.

ج . ملاحظات وفوائد مستمدة من كتب رسول الله ﷺ:

1. في كتبه إلى أهل الكتاب دعوة واضحة إلى الدين الجديد الذي يشكل امتداداً حقيقياً وإكمالاً للديانات السماوية السابقة، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وإن أبْوا فالجزية وقد حددها رسول الله ﷺ مقابل أمن أهل الذمّة وأمانهم تُدفع عن الرجال الأصحاء المنتجين، وإن رفض أهل الكتاب دفع الجزية فالحرب هي الخيار الثالث.

2. وفي عهود الذمّة كتب رسول الله ﷺ لأهل الكتاب أماناً على أنفسهم وأموالهم

(20) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص267 والوثائق لحميد الله ص130.

وكنائسهم وبيعهم وصلبانهم، ولا يُغيّرُ أسقف عن أسقفيته، فلا يتدخل المسلمون في شؤونهم شريطة أن يلتزموا بالعهود والمواثيق التي عاهدوا عليها. ومن يغدر ويخون فلا ذمة له ولا أمان.

3. فتح عهد رسول الله ﷺ لقطاع الطرق صفحة جديدة في حياتهم انتهى معها عهد الظلم والعدوان وبدأ عهد الإسلام والأمان إن هم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة. وحررهم جميعاً من العبودية.
4. أكدت جميع الكتب الترابط المطلق بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا يفرق بينها في حال من الأحوال.
5. حذر رسول الله ﷺ من الارتداد عن دين الله فمن ارتد فلا ذمة له ولا أمان.
6. لم يرد في كتب رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب ما يمنع ذبائحهم ونكاحهم بينما حُرّم أكل ذبائح المجوس ونكاحهم، بسبب الاختلاف الجذري في العقيدة.
7. مثلما حمل دحية بن خليفة الكلبي رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل، فهو حامل رسالته ﷺ إلى ضغاطر الأسقف، وعنصر التشابه بينهما هو أنهما من أهل الكتاب، وفيه معنى تخصص دحية في ذلك.
8. حرص رسول الله ﷺ في كتبه للأمراء على تثبيت زعامتهم لأقوامهم إنْ هم أسلموا وعملوا الصالحات، ولم ينازعهم أمرهم.
9. أكد رسول الله ﷺ على الأخلاق العامة واحترام ملكية الناس ونظم العلاقة بين أهل الثمار وعابري السبيل، وَردَ في كتاب رسول الله ﷺ لبارق من الأزد:

(أن لا تُجذَّ ثمارهم وأن لا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلاّ بمسألة من بارق، ومن مرَّ بهم من المسلمين في عَرَك أو جدبٍ فله ضيافةُ ثلاثة أيام، فإذا أيْنعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسعُ بطنهُ من غير أن يقتثمَ (الجدب: أن لا يكون مرعى، والعرك: أن تخلي إبلك في الحمض خاصة فتأكل منه حاجتها، ويقتثم: يحمل معه)[21].

10. ورد في طبقات ابن سعد ذكر سبع وخمسين كتاباً من رسول الله ﷺ في المجلد الأول ما بين صفحات: 262 إلى 291 تتوزع في الدعوة إلى الإسلام وتمليك الأراضي والإقطاعات والمياه وتنظيم العلاقات الرعوية بين القبائل، وتعليم الشريعة والفرائض وشروط الأمان والذمة والتحذير من الردة وتنظيم العلاقات العامة واستعمال العمال وغير ذلك.

11. تشكل هذه الكتب مواثيق مهمة ذكر فيها الشهود والكُتاب: ولهؤلاء دور عظيم الأهمية، كل بحسب موقعه والمهمة التي كلف بها، سنرى آثارها في مستقبل العلاقات النبوية. مع العرب الذين كتبت لهم هذه الكتب، فمن الذين كتبوا: أبيّ بن كعب وخالد بن سعيد وعقبة والمغيرة والعلاء بن الحضرمي وعبدالله بن زيد ومعاوية وعلي بن أبي طالب وجُهيم بن الصلت والأرقم بن أبي الأرقم والزبير بن العوام والعلاء بن عقبة وعثمان بن عفان، ومحمد بن مسلمة، وثابت بن قيس، وغيرهم.

12. ومن الشواهد المهمة: أن رسول الله ﷺ كتب إلى بكر بن وائل فَما وَجَدوا

---

(21) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص286.

رجلاً يقرؤه حتى جاءهم رجل من بني ضبيعة بن ربيعة فقرأه. فهم يسمون بني الكاتب[22].

(22) المرجع السابق ج1، ص 281.

الأساس الثاني: وفود العرب

المقدمة:

فتحت الهجرة النبوية إلى المدينة أبواب الدعوة إلى الله في جميع الآفاق والجهات تنمو وتتسع يوماً بعد يوم، وقد استطاع رسول الله ﷺ أن يقرع أبواب القبائل العربية بكل الوسائل المتاحة، ففي السنوات الأولى للهجرة عقد اتفاقيات موادعة وحسن جوار ثم بدأ الإسلام يمتد إليهم، وكان العرب يتابعون أخبار الصراع بين رسول الله ﷺ وبين قومه قريش، يترقبون الأحداث، يتهيبون المبادرة إلى رسول الله ﷺ خوفاً من زعامة قريش وحرصاً على مصالحهم معها. فقد حدث عمرو بن سلمة قال: (كنا بحضرة ماء يَمُرُّ الناس عليه، وكنا نسألهم ما هذا الأمر فيقولون: رجل زعم أنَّه نبي وأنَّ الله أرسله، وأن الله أوحى إليه كذا وكذا، فجعلتُ لا أسمع شيئاً من ذلك إلاّ حفظته كأنما يُغْرى في صدري بغراء، حتى جمعتُ فيه قرآناً كثيراً. وكانت العرب تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: أنظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم) [23].

ولقد سبق فتح مكة أن توجه الناس إلى رسول الله ﷺ يحالفونه يوم هدنة الحديبية، وكانت أبواب الإسلام قد شرعت على مصاريعها لدخول الناس في الإسلام بعد عودة رسول الله ﷺ من حصار الطائف وعمرة الجعرانة. ويمكننا تمييز الوفود التي قدمت المدينة النبوية مع توالي الزمن على الشكل الآتي:

وفود ما قبل فتح مكة، ووفود ما بعد فتح مكة

(23) المرجع السابق ج1 ص336.

أولاً: وفود ما قبل فتح مكة:

1- وفد مُزينة: كان أول وفد من مضر وفد على رسول الله ﷺ أربعمئة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس فجعل لهم الهجرة في دارهم، ويوم خروج رسول الله ﷺ إلى فتح مكة خرج معه ألف رجل من مزينة[24].

2- وفد بني سعد بن بكر في رجب سنة خَمس للهجرة حيث قدم ضمام بن ثعلبة وأسلم جميع قومه[25].

3- وفد أشجع: قدمت أشجع عام الخندق وهم مئة رأسهم مسعود بن رُخيلة، وقيل أنهم كانوا سبعمائة فوادعهم ثم أسلموا[26].

4- وفد بني عبد القيس: قبل فتح مكة: ورد ذكر هذا الوفد في آثار صلح الحديبية في بحث سابق.

5- وفد سُليم: قدم قيس بن نسيبة ـ رجل من سُليم فأسلم ودعا قومه، وقدم بنو سُلَيْم وهم تسعمئة أو ألفاً ولقوا رسول الله ﷺ بقُدَيد وصاحبوه في غزوة الفتح وحنين وحصار الطائف[27].

6- وفد الأشعريين: صفر سنة سبع من الهجرة: قدم وفد الأشعريين من اليمن يرأسهم أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) وساقتهم الريح إلى ساحل الحبشة فتوافق قدومهم إلى النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب ومهاجري

(24) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص291.
(25) البداية والنهاية لابن كثير ج5 ص60.
(26) الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص306.
(27) المرجع السابق ج1 ص208.

الحبشة أيام غزوة خيبر، قال رسول الله ﷺ فيهم: (الأشعريون في الناس كصرَّةٍ فيها مسك) [28].

7- وفد جُذام: سنة سبع للهجرة قبل غزوة خيبر قدم رفاعة بن زيد بن عمير إلى رسول الله ﷺ فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمان لمن آمن ومهلة شهر لمن كفر، وأسلم فيهم فروة بن عمرو فأهدوا إلى رسول الله بغلة بيضاء، علم الروم بإسلامه فحبسوه ثم قتلوه وصلبوه[29].

8- وفد أسلم: قبل فتح مكة: قدم عُميرة بن أفصى في عصابة من أسلم فقالوا: قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها، فإنا أخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء، فقال رسول الله ﷺ:

أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها[30].

ثانياً: وفود ما بعد فتح مكة

أورد ابن سعد في الطبقات قدوم تسعة وستين وفداً من شتى أرجاء الجزيرة العربية ذكرنا سبعة منها قدموا قبل الفتح وأسلموا، ونذكر الوفود الذين وفدوا إلى المدينة بعد الهجرة وأسلموا وبايعوا على من وراءهم[31].

---

(28) المرجع السابق ج1 ص349.
(29) المرجع السابق ج1 ص354.
(30) المرجع السابق ج1 ص354.
(31) ارجع إلى طبقات ابن سعد.

الفصل التاسع

تحديات الدولة النبوية

التحديات الخارجية
تتابع الصراع بين الإسلام
وبين القوى العظمى

الأقوى في العالم يومئذ الإمبراطوريتان: الفارسية شرقاً والبيزنطية غرباً، كانتا على صراع دائم ومتواصل كل منهما يسعى للقضاء على الآخر، وكانت أرض العرب وبعض قبائلهم بين طرفي الرحى تطحنهم الدولتان، وتدفع هذه القبائل ثمناً باهظاً من كرامتهم وأموالهم ورجالهم.

كانت آخر معارك الصراع معركة فلسطين التي انتصر فيها الفرس على الروم قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين (سنة 619 للميلاد) وفيها نزلت سورة الروم. كانت الهزيمة حدثاً هزَّ المجتمع المسيحي الرومي وأحدث تطورات فيه عسكرياً وسياسياً واعتلى العرش الرومي البيزنطي (هرقل) الذي حشد قواه وتقدم إلى بلاد الشام ثم كانت المعركة الفاصلة مع الفرس وانتصر الروم على الفرس.

ثم كانت هدنة الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة وبعث رسول الله ﷺ برسله إلى كسرى وقيصر في المحرّم من سنة سبع للهجرة، وعندئذ بدأت تظهر على ساحة الصراع أحداث جديدة ذات منحى آخر لم تعرفه الدنيا من قبل. إنها أحداث ظهور الإسلام وامتداده ونمو قوته.

أولاً: الصراع على الجبهة الفارسية

رأينا سابقاً كيف كان رد كسرى على رسالة رسول الله ﷺ. ثم قتل كسرى ولده شيرويه، ودخلت الإمبراطورية الفارسية صراعاً داخلياً على السلطة انتهى إلى سقوط عدد من الأباطرة في فترة زمنية قياسية شغلتهم عن مواجهة الدول الإسلامية الناهضة الزاحفة، والتي وصلت رايتها إلى بعض قبائل العرب بأطراف العراق الخاضعة لسلطانها. وحررت اليمن من نفوذها وكذلك فعلت في سواحل الخليج: عمان والبحرين والإحساء: ثم يبدأ الصراع بكل أبعاده بعد وفاة النبي ﷺ وفي أعقاب حروب الردة.

ثانياً: الصراع على الجبهة البيزنطية

تردد هرقل في اعتناق الإسلام بعد وصول رسائل النبي ﷺ إليه وإلى ملوك وأمراء العرب في بلاد الشام، كما تباينت مواقف هؤلاء الملوك والأمراء، بين من قتل حامل الرسالة وبين من أسلم وكتم إسلامه.

كانت السنوات التي أعقبت رسائل رسول الله ﷺ إليهم تزخر بالأحداث والتحديات نذكر منها:

1- غزوة مؤتة رداً على قتل شرحبيل بن عمرو الغساني الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله.

2- قدوم وفود العرب إلى المدينة يعلنون إسلامهم ونمو الدولة العربية الإسلامية.

3- إسلام ثلاثة نفر من الغساسنة وقتل أحدهم وصلبه.

4- اشتداد مخاوف الروم وحشدهم الحشود للهجوم على المدينة النبوية، بالتحالف

مع العرب المتنصرة في بلاد الشام.

5- إجراء اتصالات مستمرة بين قيادات الروم وشخصيات عربية في المدينة وغيرها للتجسس على تحركات الدولة الإسلامية الناشئة أمثال: أبي عامر الفاسق وسويلم اليهودي وغيرهم.

6- دعم الروم للمنافقين وتشجيع من يرغب بالتعاون معهم ليجعلوه ملكاً على العرب. هذه الأحداث وأحداث أخرى كان رسول الله ﷺ يرصدها ويعد لها، وكانت على أثر ذلك:

غزوة تبوك رجب سنة ٩ للهجرة:

أولاً . أسباب الغزوة:

1- حشدَ الروم جيوشهم وجُيوش أحلافهم من القبائل العربية المتنصرة في بلاد الشام.

2- قدم التجار الأنباط إلى المدينة يبيعون فيها تجاراتهم كما هي عادتهم منذ أيام ما قبل الإسلام، وذكروا في المدينة: بأن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأنَّ هرقل قد رَزَقَ أصحابه لسنة وأجلب معه لخم وجُذام وغسان وعامله (وهي من القبائل العربية المتنصرة في بلاد الشام) وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء (في الأردن) وعسكروا بها[1].

---

(1) المغازي للواقدي ص990.

3- كان المسلمون والعرب يحسبون للروم ألف حساب، وذلك لأمان بلادهم وسلام قوافلهم التجارية، فكانوا على تواصل دائم مع ما يجري من أحداث على أرض بلاد الشام وامتدادها إلى بلاد الروم. وقد علموا بما يُعدُّه الرومان وحلفاؤهم من العرب، من رجال وسلاح وكراع.

ثانياً. الموقف النبوي من حشود الروم:

سارع رسول الله ﷺ بعد أن وصلته أخبار الحشود في بلاد الشام، إلى استنفار المسلمين لحرب الروم وحلفائهم. وقد عاش الجميع أياماً حاسمة مليئة بالحذر والترقب، يتوقعون إغارة الروم على المدينة النبوية، وكان من الأحداث المهمة:

1- أمر رسول الله ﷺ أصحابهُ بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عُسرةٍ من الناس، وشدة من الحرّ وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهِم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قَلَّما يخرج في غزوة إلاَّ كنّى عنها، وأخبر أنَّه يُريد غير الوجه الذي يَصْمُدُ له، إلا ما كان من غزوة فإنَّه بَيَّنَها للناس لبُعد الشقَّة وشدَّة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم(2).

2- بعث رسول الله ﷺ رُسُلَهُ إلى القبائل يستنفرهم للقتال.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج4 ص159.

التحديات الداخلية
للدولة النبوية

مقدمة:

كان العام التاسع للهجرة النبوية عام الانتقال التام بالإسلام من حدوده الأولى إلى آفاقه العربية والعالمية، ذلك بأنَّ فتح مكة قبل عام من الزمن فتح أبواب العرب قاطبة، وغزوة تبوك توَّجت إتمام انتشار الإسلام في بلاد العرب وطرقت أبواب الأمم والعالم.

لقد بدأت الظواهر الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الجديد الموحَّد تشير إلى بدء مرحلة التكامل، وسط تفاعلات الصراع بين آثار الآباء والأجداد، والمزاعم والمصالح والقدرات، وبين الانطلاق الشامل المتحرر الذي يعتمد كليَّةً على الأسس والقواعد التي جاء بها الإسلام، وعمل على تحقيقها رسول الله ﷺ.

ومن الواضح جداً أنَّ النمو والاتساع الذي شهدته الحركة الإسلامية في أوساط العرب جميعاً كانت أقوى من جميع ظواهر الزعاميّة القبلية والآبائية المتخلفة، ورواسب التفكير الخرافيّ، ومزاعم النبوءات المزيفة.

لقد كان من فضل الله على الأمة الإسلامية أن تظهر جميع التفاعلات الإنسانية في مرحلة نهوض الأمة وتوجهها لصناعة عزتها وكرامتها، ورسول الله ﷺ يقود ركبها ويتلقى من ربه المثل الأعلى في معالجة هذه الظواهر لتكون نبراساً لمن يأتي بعده في رعاية الأمة المسلمة على مر العصور.

ويُعد كونُ رسول الله ﷺ في قيادة ركب الأمة الإسلامية حُجّةً على جميع العاملين في حقل الدعوة الإسلامية إلى قيام الساعة، يجدون في رسول الله ﷺ المثل

الأعلى والقدوة الحسنة في معالجة الأمور التي تستجد على الساحات الإسلامية.

رسول الله ﷺ على رأس الدولة الإسلامية، يتصدى للعدو الخارجي وجواسيسه في الداخل، والمنافقين، وضعاف القلوب والإيمان, المتطرفين، والجاهلين، والمصاعب الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية والحاجة إلى التعليم والإرشاد وبناء المساجد والنهوض بالعمران واستمرا بناء القوة الدفاعية وإعداد الرجال القادة والكوادر الإدارية والمالية... إلى آخر ما هنالك من مهمات صاعدة ومتزايدة. ورسول الله ﷺ ينفذ شريعة الله ويتلقى من ربه الشريعة ويحقق ما يأمره به الله سبحانه وتعالى بفترة زمنية محدَّدة محسوبة مع تسارع الخطى وتلاحق الأيام.

إنَّ ذلك كله يحدث ما بين فتح مكة والارتحال إلى الرفيق الأعلى ليكون نبراساً يهتدي به المسلمون والبشر جميعاً. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

أولاً ـ الأحداث الكبرى بعد تبوك

ظهرت في هذه الفترة الأحداث الآتية:

1- اتساع حركة النفاق واشتداد السعي في إفساد المجتمع الإسلامي.

2- ظهور المكذبين أدعياء النبوة وارتدادُ بعضِ العرب عن الإسلام.

3- اكتمال بناء الشخصية الإسلامية للفرد والمجتمع والدولة عقيدة وسلوكاً وتشريعاً وعبادات ومعاملات.

4- وهذا كله لم يكن في عزلة عن بعث السرايا والدعاة والقضاة والجباة والأمراء إلى جميع القبائل والبلاد التي دانت بالإسلام في أرض العرب.

5- وكان في سنة تسع للهجرة بإمارة أبي بكر الصديق.

6- ثم كانت حجة الوداع واكتمال الدين سنة عشر للهجرة.

7- وبعدها كان مرض رسول الله ﷺ وختم النبوة.

ذ. اتساع حركة النفاق:

يشكل النفاق الصورة القذرة والمواقف الأكثر سوءاً وفساداً في العلاقات الإنسانية، ذلك لأنه تعبير دقيق عن تناقض الرأي وسوء الخلق بإظهار شيء وإخفاء ضدّه. مما يتيح لصاحبه أن يكون ذا وجهين، يمكنه نفاقه من ممارسة الغدر والخيانة والإفساد. والمنافقون لا يفتقرون إلى الأساليب التي تمكنهم من التستر والاستخفاء يتصيدون الفرص والمناسبات ويبحثون عن الحجج التي قد يستجيب لها البسطاء من الناس الذين لا يملكون القدرة على معرفة المقاصد وربط الحقائق بعضها ببعض، والذين لا يرون الأمور إلاَّ من خلال النظرات الضيقة والمصالح الخاصة.

خصَّ الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة المؤمنين بخمس آيات وخصَّ الكافرين بآيتين، وأفاض في وصف المنافقين والتحذير منهم وكشف خداعهم وأمراضهم ومفاسدهم فذكرهم في ثلاث عشرة آية.

- كان من ظواهر المنافقين ما عرفناه في جميع المراحل السابقة في المدينة ثم تعرفنا قبل قليل على ما فعلوه في محاولة تخذيل المسلمين عن الخروج إلى تبوك ورجوع عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول من المعسكر إلى المدينة هو ومن معه ومن أتباعه ولم يكن عددهم قليلاً، ثم رأينا مواقفهم خلال أحداث غزوة تبوك والتي كان أخطرها على

الإطلاق محاولة قتل رسول الله ﷺ. وكذلك كانت مؤامرة مسجد الضرار الذي هدمه المسلمون وحرقوه بأمر رسول الله ﷺ بعد العودة من تبوك.

لقد فضح الله المنافقين وكشف ركائزهم وأشخاصهم وكان حذيفة بن اليمان كاتم أسرارهم لدى رسول الله ﷺ وبلغ الأمر منتهاه بين رسول الله ﷺ وبينهم في الحادثة التالية:

موتُ زعيم المنافقين: عبدالله بن أُبَيِّ بن سلول

مرض عبدالله بن أُبَيِّ بن سلول في ليال بقين من شوال وبات في ذي القعدة مرض عشرين يوماً، وكان رسول الله ﷺ يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه، دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال: قد نَهيتُك عن حب اليهود. قال عبدالله بن أُبَيِّ: أبغضهم أسعد بن زُرارة فما نفعه. ثم قال: يا رسول الله، ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مِتُّ فاحضر غُسْلي وأعطني قميصك أُكَفَّنُ فيه، فأعطاه الأعلى، وكان عليه قميصان، فقال: الذي يلي جلدك، فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه، ثم قال: صَلِّ عَليَّ واستغفر لي. ومات عبدالله بن أُبَيِّ وحضر رسول الله ﷺ غُسْلهُ وحضر كَفْنَهُ، ثم حمل إلى موضع الجنائز، فتقدم رسول الله ﷺ ليُصلّي عليه، فلما قرب وثب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أتُصلي على ابن أُبَيِّ وقد قال يوم كذا وكذا، وقال كذا وكذا؟ فعدَّ عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أَخِّر عني يا عمر! فلما أكثر عليه عمر قال: إني قد خُيِّرت فاخترت، ولو أعلم أني إذا زِدْتُ على السبعين غُفِرَ له زدت عليها، وهو قوله عَزَّ وجلَّ: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن

الفصل العاشر

اكتمال الدين وختم النبوة

اكتمال الدين
وختم النبوَّة

1- **أجمع رسول الله ﷺ الخروج إلى الحج** وآذَنَ الناس بذلك فقدم المدينة بشرٌ كثير يأتمون برسول الله ﷺ في حجته، ولم يحج غيرها منذ بُعث إلى أن توفاه الله، فخرج من المدينة مغتسلاً متدهناً مترجلاً متجرداً في ثوبين صُحاريين إزار ورداء وذلك يوم السبت لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، حتى أتى ذا الحُلَيْفة. ومعه جميع نسائه وأصحابه والهدْي دخل مسجد ذي الحليفة بعد أن صلى الظهر وصلى ركعتين، ثم خرج فدعا بالهدي فأشعره في الجانب الأيمن، وقلَّدَ نَعْلَين. ثم ركب ناقته فلما استوى بالبيداء أحرم[1].

2- **خطبة الوداع**: ثم مضى رسول الله ﷺ على حجّه، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجِّهم، وخطب الناس خطبته التي بيَّن فيها[2] ما بَيَّن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! اسمعوا قولي، فإني لا أدري، لَعَلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوْا ربكم كحُرمةِ يومكم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلَّغت؟ اللهم أشهد! وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول رِباً أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب.

---

(1) المغازي للواقدي ص1088 وما بعد باختصار.

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج4 ص250.

وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أوَّل دمٍ نَبْدأُ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

ألا أنَّ كلَّ مأْثُرةٍ[3] كانت في الجاهلية ودمٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ هاتَين إلاَّ ما كان من سِدانة البيت، وسقايةً الحاج، ألا إني قد أمضيتهما لأهلهما كما كانتا. والعَمْدُ قودٌ[4]، وشبهُ العَمْدِ: قُتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس! إنَّ الشيطان قدْ يَئِسَ أنْ يُعْبَدَ في أرضكم هذه، ولكنه قد رضيَ أنْ يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة/37].

إنَّ الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.

و ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة/36].

ثلاثة متواليات وواحد فردٌ: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟

اللهم اشهد!

(3) المأثرة: المكرمة المتوارثة والتفاخر بها.

(4) العمد: القتل العمد، وحُكمُهُ القَوَدْ: قتل القاتل بالقتيل.

أيها الناس: إنَّ لنسائكم عليكم حقاً، ولَكُم عليهن حقٌ، لكم عليهن ألاَّ يوطئن فُرُشُكم غيرَكُم. ولا يدخلْنَ أحداً تكرهونه بُيوتكم إلاَّ بإذنكم، ولا يأتينَ بفاحشة مُبينةٍ، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذِنَ لكم أن تعضُلوهنَّ وتهجُروهنَّ في المضاجع. وتضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّح؛ فإن انتهيْنَ وأطعنكم فعليكم رزْقهُنَّ وكُسوَتهنَّ بالمعروف، وإنَّما هُنَّ عندكم عَوانٌ[5] لا يملكن لأنفسهنَّ شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستَحْلَلْتم فُروجَهُنَّ بكلمة الله، فاتَّقوا الله في النساء، واستوصوا بهنَّ خيراً ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد.

أيها الناس! إنَّما المؤمنون أخوة ولا يحل لامرئٍ مالُ أخيه إلاَّ عن طيب نفس منه فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغتُ؟

اللهم اشهد

فلا ترجعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إنْ أخذتم به لم تضلُّوا بعده كتاب الله وسُنَّة نبيه، ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد!

أَلا ليُبلِّغَ الشاهد الغائب، فلعلَّ بعض من يُبَلِّغُهُ أن يكون أدعى له من بعض من سمعه.

أيها الناس: إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كُلكم لآدم، وآدم من تراب، ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات/13]، وليس لعربي على عجميٍّ فَضَلٌ إلاَّ بالتقوى، ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم. قال: فليبلِّغ الشاهد الغائب.

(5) عوان: أسيرات.

أيها الناسُ: إنَّ الله قسم لِكلٍّ وارث نصيبهُ من الميراث، فلا يجوز لوارث وصيةٌ في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحَجَرُ، مَنْ ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غير تواليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبلُ منهُ صرفٌ ولا عدلٌ.

وأنتم تُسأَلون عَنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نَشْهدُ أنك قد بلَّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكُثها إلى الناس:

اللهم اشهد! اللهم اشهد! [6]

ثم أمر بلالاً فأذَّن ثم أقام الصلاة فصلّى الظهر ركعتين ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً. وكان يوم الجمعة، فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف فوقف وابتهل إلى الله[7] ثم نزلت عليه الآية الكريمة: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة/3].

ولم يزل رسول الله ﷺ واقفاً مستقبلاً القبلة يدعو ربه من الزوال إلى الغروب قال:

(لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير).

اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الشيطان ومن وسوسة الصدر ومن شتات الأمر ومن شر كل ذي شر، اللهم إنك تسمع كلامي وترى

---

(6) البيان والتبيين للجاحظ ج2 ص / 31 . 33/، يجمع أهل السير أن هذه الخطبة لم تكن في مشهد واحد وإنما جمعت من مشاهد مختلفة.

(7) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص331.

مكاني وتعلمُ سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري. أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجِلُ المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضريع، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته وذلَّ لك جسده، ورَغمَ لكَ أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين[8].

3- اكتمال الدين: لما نزلت آية ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ بكى عمر رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة، أمَّا إذا كَمُلَ فإنه لا يكمل شيء إلا نقص، فقال: صدقت. فكانت هذه الآية نَعْيُ رسول الله ﷺ، فلم يعش بعدها إلاَّ ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ولم ينزل بعدها شيء من الأحكام[9].

ثم توجه رسول الله ﷺ إلى مزدلفة وتابع مناسك الحج ورجع إلى المدينة النبوية وكان دعاؤه:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد يحيي ويُميت وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون ساجدون عابدون، لربنا حامدون! صدق الله وحده وَنصرَ عبده. وهزم الأحزاب وحده! اللهم إنا نعوذ بك من وَعْثاء السفر، وكآبةِ المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال. اللهم بلِّغنا بلاغاً صالحاً نَبْلُغُ به إلى خير مغفرةٍ ورضوان[10].

(8) السيرة الحلبية ج3 ص300.

(9) المرجع السابق ص301.

(10) المغازي للواقدي ص 1114.

٢. مشاهد ودروس من أحداث حجة الوداع:

آ . اجتماع الأمة على صعيد واحد:

إنَّ فريضة الحج جامعة البشرية على صعيد واحد يلتقي فيه الرجال والنساء، كبيرهم وصغيرهم أبيضهم وأسودهم، عربيهم وأعجميهم، يلبسون لباس الإحرام متجردين من حولهم وقوتهم وأموالهم ومتاعهم وعبيدهم وأربابهم كلهم سواء وربهم واحد.

إن عظمة حجة الوداع في كونها جمعت الناس حول نبيهم وإمامهم ومعلمهم ومرشدهم، مع اختلاف أوقات دخولهم في الإسلام، لقد اجتمع في عرفات مائة وأربع وعشرون ألفاً من المسلمين يتلقون من رسول الله ﷺ مناسك الحج والعمرة، كان العدد وفيراً لم تشهده عرفة من قبل، ومن أجل البلاغ وإيصال خطبة رسول الله ﷺ ساعة خطبته. وقف جرير بن عبدالله البجلي يشير بيديه إلى الناس أن أنصتوا، ووقف ربيعة بن أمية بن خلف يُبلغ عن رسول الله ﷺ ما يقول.

ذلك أن جرير بن عبدالله البجلي كان أطول الناس وأحسنهم هيئة وكان ربيعة بن أمية بن خلف ذا صوت قوي يصل إلى المدى البعيد.

الناس جميعاً في عرفات ينشدون العفو والمغفرة ورضى الله سبحانه وتعالى، تتطهر نفوسهم من دنس الدنيا وتتذلل بخشوع لعظمة الله، يجمعهم جميعاً قول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ب . الزحام الشديد وآداب الحج:

مع كثرة العدد وعظمة الحشد كان رسول الله ﷺ يقول للناس: السكينة

السكينة[11]، وكان تعلوه السكينة. وقال عليه الصلاة والسلام:

(أيها الناس إنَّ البرَّ ليسَ بإيجاف الخيل والإبل فعليكم بالسَّكينة) [12].

ومن أخلاق الحج في القرآن الكريم:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة/197].

ج . معالم متميزة في خطبة الرسول ﷺ:

اشتملت الخطبة النبوية على منهج أخلاقي وتشريعي وحضاري للأمة: نظمت العلاقات الإنسانية وبينت حرمة الأموال والدماء والأراضي . وألغت آثار الجاهلية، وحددت موازين الزمن وضبط المواقيت وألغت الربا والثأر، وبينت حقوق المرأة وحقوق الرجل، وأوصت بالنساء خيراً وأكدت على تشريع المواريث، وأخوَّة المؤمنين وإنسانية الدين ومرجع البشريَّة إلى آدم عليه السلام، وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، والتقوى ميزان الله يقيمه مقياساً للفضل بين الناس. وحذرت من الانحراف عن الدين وإطاعة الشيطان، وأوضحت طريق السلامة والنجاح والنجاة من الضلال بالالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن المعالم المهمة: أدب رسول الله ﷺ مع ربه وأدبه مع الناس.

د . إصغاء رسول الله ﷺ للناس وإجابته لهم عن كل سؤال:

وقد تجلى التواضع النبوي مع التيسير والتبشير، في كل موقف من مواقفه

(11) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، حديث 1218.

(12) أخرجه أبو داود حديث 1920، وأحمد في مسنده 277/1، والحاكم 309/3.

ﷺ والتأكيد على أمانة التبليغ والحاضر يعلم الغائب.

هـ. ولم يدخل رسول الله ﷺ منزلاً قط من منازل مكة:

وإنما دخلها دخول الحاج، ومن بين الأحداث المهمة التي جرت ما وقع لسعد بن أبي وقاص: عن الزهري عن عامر بن سعد عن أبيه قال: (جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع أصابني، فقلت: يا رسول الله قد بلغ بي ما ترى من الوجع. وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنةٌ لي، فأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا! قلت: فالشطر؟ قال: لا! ثم قال: الثلث والثلث كثير! إنك أَنْ تترك ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تتركهم عالةً يتكففون، وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله إلاَّ أُجِرتَ بها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك! فقلت: يا رسول الله أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ فقال: إنك إنْ تُخلَّف فتعمل صالحاً تزدد خيراً ورفعةً، ولعلك أن تُخلَّف حتى ينتفع بك أقوام أو يُضَّرَ بك آخرون. اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة، (يرثي له أن مات بمكة).

وخلَّفَ رسول الله ﷺ على سعد رجلاً وقال: إنْ مات سعد بمكة فلا تدفنه بها.

قال سعد بن أبي وقاص للنبي ﷺ: أَيُكرَهُ أن يموت الرجل في الأرض التي هاجر منها؟ قال: نعم[13].

و . مشهد عملي عن معاني الحساب:

رسول الله ﷺ يقول للناس في عرفة: إنكم ملاقو ربكم فسائلكم عني، فماذا تقولون؟ إن هذا المشهد يقدمه رسول الله ﷺ للناس، وقد شهد له ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه درس بليغ لكل مسلم على مدى الأزمان أن يحسب للحساب كل حساب، وحساب الناس يوم الحساب مرتبط بين يدي الله سبحانه وتعالى بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان يتوجه به إلى رضى الله، والنبي ﷺ، يطلب في هذا المشهد شهادة الناس به بين يدي الله، جديرة بأن تطوع النفوس للعمل بسنة النبي ﷺ، بكل أبعادها، وأنَّ على هذه النفوس أن تعي أنَّ المرء بقدر إيمانه بالله وبقدر إتباع سنة رسول الله بقدر ما يكون ذلك حقيقة واقعة على ساحة علاقاته بالناس، وعليه بالتالي أن يكون مستعداً لمثل هذا اللقاء بين الناس ليشهدوا له بين يدي رب الناس سبحانه وتعالى.

(13) رواه البخاري /1233 ومسلم /1628.

٨. بعث أسامة بن زيد إلى الشام:

ثم قفل رسول الله ﷺ فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرَّم وصفراً، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهَّزَ الناس، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأوَّلون[14]. وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

وكان ذلك يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال:

(سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل أُبنى وحَرِّق عليهم، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفّرك الله فأقْلِلِ اللَبْثَ فيهم، وخذ معك الأدلاَّء، قدم العيون والطلائع أمامك)، فلما أَصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءه بيده ثم قال:

(أعزُ بسم الله، في سبيل الله، فقاتل من كفرَ بالله). فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بُريده بن الحُصَيْب الأسلمي، وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلاَّ انتدب في تلك الغزوة فيهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيد بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن جَريش[15].

وبينما يُعدُّ أسامة بن زيد جيشه للغزو مرض رسول الله ﷺ وازداد مَرَضه،

---

(14) السيرة النبوية لابن هشام ج4/ 291.

(15) الطبقات الكبرى لابن سعد ج2 ص189.

فآثر أسامة بن زيد الانتظار والتريث لشأن رسول الله ﷺ، فلم يغادر المعسكر، ولزم المدينة.

كان عمرُ أسامة بن زيد في هذا الوقت تسعة عشر عاماً، وفي جيشه أوائل المهاجرين، يزيد عمر بعضهم على ستين عاماً، ولهم في الإسلام مآثر خالدة، وهذا أسامة لم يبلغ العشرين، هذا الأمر يوضح بجلاء اهتمام رسول الله ﷺ بالشبان فهم عزيمة الأمة وعصبها الفاعل، وحين اعترض بعض الصحابة على إمارة أسامة، أشاد رسول الله ﷺ به وبأبيه زيد من قبل، وأكد أنه كفؤٌ لها.

وتوفي رسول الله ﷺ، يوم الاثنين 12ربيع الأول 11هـ.

الخاتمة

عشر سنوات مضت من سنوات عزّة الإنسانية الرساليّة، أقام فيها رسول الله ﷺ دولة الإسلام الأولى، كالبناء الشامخ، كل لبنة من لبناته تشكل أساساً لعلم، أو عمل أو أدب أو فن أو اقتصاد أو سياسة أو دبلوماسية أو عمران أو تربية أو دعوة إلى الله، أو تحرير للنفس الإنسانية من الشرور والآثام، مترافقة بأبواب مشرعة للبشرية، للتوبة عن الذنوب، والمشاركة الجادة في حركة بناء الحياة الإنسانية الفاضلة.

لقد شهد جيل الصحابة حياة حقيقية بكل أبعادها، رسمت للبشرية صياغة الدور الحقيقي الفاعل للإنسان الحرّ، شارك فيها الكبار والصغار، الشيوخ والأطفال، الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء، العلماء والمتعلمون، السادة والعبيد، الرعاة والرعية.

توضحت فيما بينهم حقائق المسؤولية، والقيم الدينية والأخلاقية، وحقوق الإنسان. كانت السنوات العشر غرَّةً في جبين الدهر، ومثلاً حسناً وأسوة صالحة لبني البشر على مرّ الزمن.

لقد اكتمل الدين واختتمت النبوة وكان انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، تاركاً وراءه جيلاً ومنهاجاً ومثلاً واضح المعالم والأبعاد. حمل بكل وعي وأمانة وإخلاص المهام الملقاة على عواتق رجالاته. تابعوا مسيرة نبيّهم وحملوا الحريّة والكرامة إلى أمم الأرض بهمة عالية وحب عظيم وتضحيات جسيمة.

إن الدولة النبوية حقيقة خالدة، ومثل إنسانيٌّ البنية، رساليُّ الغاية، وبناء دعويٌّ حضاريٌّ انتقل من الفكر والنظر والأمل إلى واقعٍ حياتيٍّ مُعاشٍ يتحلّى باليُسرِ

والوسطية والاعتدال، بلا تشدّد ولا إكراه، نراه مع مضي الزمن المثل الأعلى والأسوة الحسنة الصالحة لبني آدم، الذين يتطلعون إلى رضى الله سبحانه خالق الأكوان.

والحمد لله رب العالمين.

مروان شيخ الأرض

المصادر والمراجع

1. الاستيعاب، ابن عبد البر.
2. الإصابة في تمييز الصحابة.
3. الأحاديث المختارة، الضياء المقدسي.
4. الأموال، أبي عبيد القاسم بن سلام، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى، 1981 م.
5. البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، ط2، 1977م.
6. البزار.
7. البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الخانجي.
8. التاريخ الكبير، البخاري.
9. التراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي.
10. الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/أحمد محمد شاكر وآخرون.
11. الحلية، أبي نعيم.
12. الروض الأنف، السهلة، دار المعرفة، بيروت، 1978م.
13. الزهد، ابن المبارك.
14. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994م، ت/محمد عبد القادر عطا.
15. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ط1، ت/ د.عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن.
16. السيرة الحلبية.
17. السيرة النبوية، ابن حبان.

18. السيرة النبوية، ابن هشام، دار إحياء التراث العربي.
19. السيرة النبوية، أبي الحسن الندوي.
20. الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر، 1985م.
21. القاموس المحيط.
22. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، ط4، 1983م.
23. الكامل، ابن عدي.
24. المدينة الإسلامية ، د. محمد عبد الستار عثمان، سلسلة عالم المعرفة.
25. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ-1990م، ط1، ت/ مصطفى عبد القادر عطا.
26. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ، ت/طارق بن عوض الله بن محمد _ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.
27. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1404هـ-1983م، ط2، ت/حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
28. المغازي، الواقدي، عالم الكتب، بيروت.
29. المنتخب، عبد بن حميد.
30. الوثائق السياسية للعهد النبوية والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس.
31. الوفاء بأحوال المصطفى، ابن الجوزي، دار الكتب الحديثة، 1966م.
32. أسد الغابة، ابن الأثير، دار إحياء التراث العربي.
33. تاريخ الأمم و الملوك، الطبري، دار سويدان، بيروت.
34. رياض المتعلمين، ابن أبي نعيم.
35. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1979 م.
36. سنن ابن ماجة.

37. سنن ابن منصور.
38. سنن الدارمي.
39. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، ت/محمد محيي الدين عبد الحميد.
40. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثير, اليمامة، بيروت، 1407هـ-1987م، ط3، ت/د.مصطفى ديب البغا.
41. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي.
42. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
43. فتوح البلدان، البلاذري، دار الكتب العلمية.
44. كتاب الفتوح، الكوفي، دار الندوة الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت.
45. كنز العمال ، المتقي الهندي.
46. مجمع الزوائد، الهيثمي.
47. مسند ابي يعلى.
48. مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
49. مسند الشهاب، القضاعي.
50. معجم البلدان، ياقوت الحموي.
51. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، دار إحياء التراث العربي، مصر، ت/محمد فؤاد عبد الباقي.
52. وفاء الوفاء ، السمهودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1984م.

فهرس المحتويات

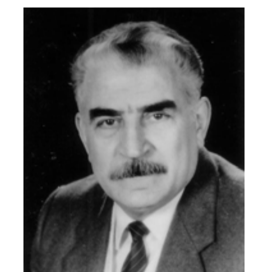
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة ذاتية:



الاسم: مروان شيخ الأرض بن يوسف .

مواليد دمشق 1940

الشهادات العلمية:

1. شهادة الثانوية العامة /الفرع الأدبي/ 1960م
2. إجازة في الآداب /قسم التاريخ . جامعة دمشق /1965م.
3. دبلوم عامة في التربية /كلية التربية . جامعة دمشق /1966م.
4. ماجستير في الدراسات الإسلامية . جامعة كراتشي للدراسات الإسلامية /1995م.
5. دكتوراه في السيرة النبوية . جامعة كراتشي للدراسات الإسلامية /1998م.

الخبرات التعليمية والعملية:

1. مدرّس تاريخ في مدارس وزارة التربية منذ عام 1966 . 1989م
1. مدرّس تاريخ في مدارس دمشق الخاصة منذ عام 1961 . 1994م.
3. أستاذ مادة التاريخ الإسلامي في كلية الدعوة الإسلامية/ فرع دمشق منذ عام 1984 . 2005م.
4. أستاذ مادة السيرة النبوية في قسم الدراسات العليا /كلية أصول الدين/ فرع دمشق منذ 1998 . 2005م.
5. تفرّغ كامل للدراسات الإسلامية، والسيرة النبوية.

الإنجازات العلمية:

1. كتاب السيرة النبوية /العهد المكي والمدني /2003م.
2. كتاب الدولة النبوية 2006م.
3. كتاب دولة الخلفاء الراشدين 2007م.
4. مذكرة في علم التاريخ /المدخل إلى دراسة التاريخ الإسلامي 1991م.
5. مذكرة في تاريخ الدولة الأموية 2003م.
6. مذكرة في تاريخ الدولة العباسية /العهد الأول 2004م.

مروان شيخ الأرض

دمشق 2007م